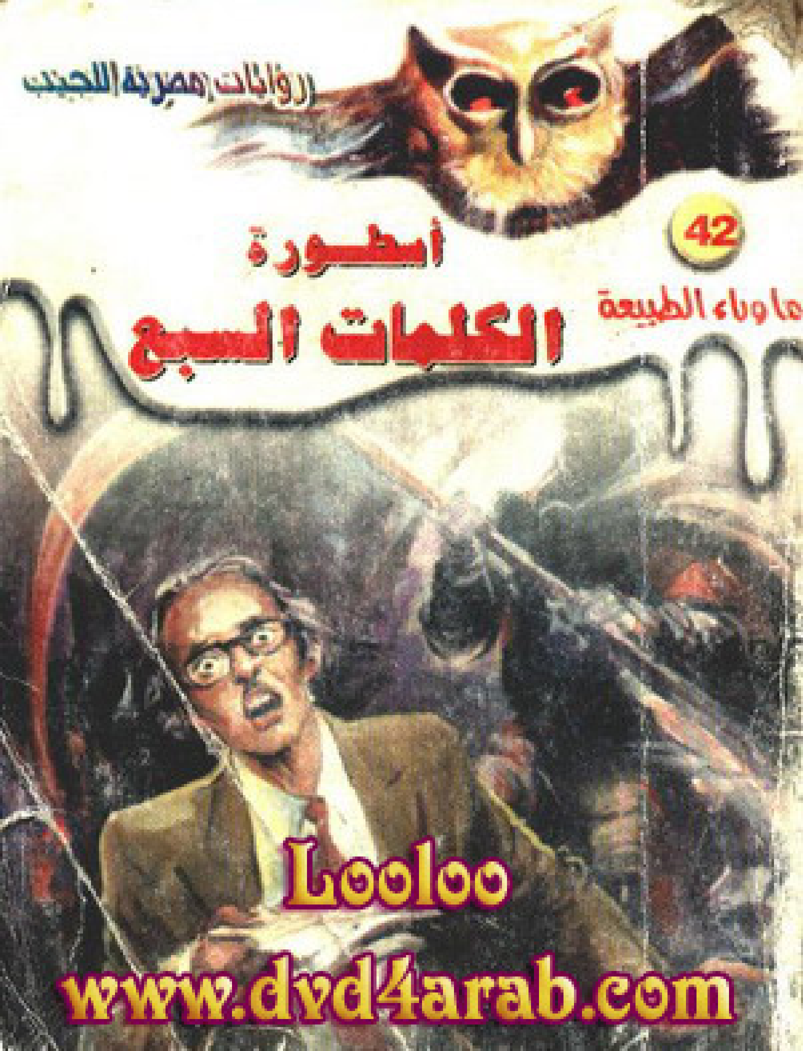

روايات مصرية للجيب
42
ما وراء الطبيعة
أسطورة
العلامات السبع
Looloo
www.dvd4arab.com

مقـدمـة

من ذلك العجـوز الثرثـار الذى لا يكف عن الكلام ، ويعجز عن الموت ؟

مـن الـذى واجـه النداهة فى الحقول المظلمة ، وفتح تابوت الكونت (دراكيولا) ، وقبع فى سيارة يحاصرها الموتى الأحياء ؟

هل عرفتم الإجابة ؟

من الذى رأى تجربة (فرانكنشتاين) الرهيبة ، ووقف يرتجف على الجانب الآخر من (جانب النجـوم) ، بينمـا صرخات صديقه الوحيد تمزق سمعه ؟

لقد دنوتم كثيرًا من الإجابة ..

من الذى طارده الجنود النـازيون الذين لـم يموتـوا ، وزارته حسـناء المقـابر بعد منتصف الليل ، وأقسـم (لوسيفر) أن يقتله أبشع قتلة ممكنة ؟

من ؟ تقولون (جيمس بوند) ؟

لو كان هدفكم استفزازيًا فقد نجحتم ، أما إن كنتم تعنون هذا حقًا ، فإنني قلق بصدد حصيلتكم من المعلومات العامة ..

إن (رفعت إسماعيل) هو (رفعت إسماعيل) .. كائن متفرد فى قبحه ونحوله وعصبيته واعتلال صحته ، وخبراته العديدة فى عالم الرعب والظواهر الميتافيزيقية ..

اليوم يحكى لكم (رفعت إسماعيل) قصته مع الكلمات السبع ، وهى قصة لا بأس بها ، وقد حان وقتها من زمن ..

تدور أحداث القصة على النمط التالى :

* * *

١ ـ بداية البداية ..

اسمعوا الكلمات السبع ..

* * *

الثلوج تنهمر من السماء فى عالم رهيب .. عالم الكلمة العليا فيه هى للّون الأبيض .. عندما يغدو الأبيض هو لون الموت ..

عالم نسى كلمات (الدفء) و(الشمس) و(الزهور) من زمن ، ولا عجب فنحن فى قلب الشتاء ..

نحن الآن فى شمال (انجلترا) عام ١٢٥٧م .. المكان هو ممرّ (سبتال أوف جلنتشى) قرب أخدود (جلين الكبير) ..

المنطقة منطقة مستنقعات رهيبة ، قلما دخلها أحد وعاد منها كى يحكى ما رآه ، وقد تكفل الظلام والثلوج المنهمرة فى جعل هذا موضعًا خارج خارطة الوجود الإنسانى .. جنّة للشياطين والأشباح .. وحقًا كان القوم

فى القرى الدانية يتحدثون كثيرًا عن الأضواء الغريبة التى يرونها فى الغابات ليلاً ووسط المستنقعات ..

هذا هو المشهد الذى تبدأ به قصتنا ، وهو بالتأكيد ليس مشهدًا محببًا أو داعيًا إلى التفاؤل .. لكن لا ذنب لى فى هذا ..

ولكن .. هل ترى ؟

هل ترى هذا الفارس الذى يشق طريقه وسط المستنقعات فوق صهوة جواده ؟ يا لشجاعته ويا لبراعته ! كيف يجد طريقه وكيف لا تطوّح به العواصف ليسقط فى الثلوج الهشة ؟

ثمة شىء ما يخيفنى فى هيئته المسربلة بالظلام .. شىء ما فى جلسته المتصلبة على ظهر الجواد ، والجواد نفسه يثير الرهبة بالبخار المتصاعد من منخريه ؛ كتنين أسطورى من أساطير القدماء ..

من هو هذا الفارس ؟

ماذا يريد ؟

من أين جاء ولأين يذهب ؟

كلها أسئلة لا نملك لها جوابًا فى الوقت الحالى ..

* * *

وفى أحد أكواخ الحطابين ، تلتف الأسرة كلها حول النار والحساء الساخن .. إنها لحظة من أجمل لحظات اليوم ..

الحساء خال من اللحم طبعًا ، فقد ندر الصيد فى هذه الآونة ، لكن من يهتم والعروق قد تجمد الدم فيها ، فلم تعد تملك شروطًا ؟ يكفى أن يكون الطعام ساخنًا ، وليكن بعد هذا أى شىء ..

تأمل الوجوه فى هذا الوقت المبكر من تاريخ (انجلترا) .. تأمل قصّة الشعر العجيبة التى تتركه أصلع كله فيما عدا خصلة كعرف الديك فى المنتصف .. تأمل الثياب الرثة المصنوعة من جلود لم تدبغ .. تأمل الجباه الضيقة الواشية بغباء ما بعده غباء ، وظلام روح ما بعده ظلام .. وتذكّر أننا فى عصر يسبق عصر النهضة بعدة قرون ..

الحطاب هو أضخم الجالسين ، ويدعى (ويليام) .. بينما امرأته هى الواقفة جوار الموقد تطهو الحساء ، ثم تصبه فى أوعية صغيرة من الفخار يشربون منها .. إن الملاعق لم توجد بعد ..

هلم اجلس وتجاهل الرائحة .. إن الاستحمام لم يخترع بعد خاصة فى هذا الزمهرير .. تحك رأسك ؟ لا عليك .. هؤلاء القوم لا يبدلون ثيابهم أبدًا ، ويعتبرون القمل والبق كائنات صديقة يمكن التعامل معها فى مودة ..

وفى الخارج يلعب الجليد ألعابه القاسية مع الطبيعة ، وشعاره ألا رحمة بعابرى السبيل ..

* * *

يقول الحطاب بصوت غليظ :

ـ « هاتى المزيد من الحساء يا (مارى) .. فقد كان يومى شاقًا .. »

هل سمعت هذا المقطع ؟ هل ميّزت اللغة ؟

إنها ليست الإنجليزية طبعًا .. أو ـ إذا شئنا الدقة ـ هى الإنجليزية حين كانت رضيعة .. لقد انتقلت هذه اللغة إليهم من قبائل الجرمان والسلت التى غزت شمال البلاد ، لهذا تبدو اللغة أقرب إلى الجرمانية (الألمانية فيما بعد) ، ومازال أمامها الكثير كى تنفصل وتتفرد وتملك مصطلحاتها وقواعدها ..

سمعوا دقّات على الباب الخشبى العتيق ..

تبادلوا النظرات .. ما من أحد يجىء فى هذا البرد ، فمن فعلها ؟

تقول الزوجة ببلاهة مذعورة ، وغباء راجف :

ـ « لا تفتح أى (ويليام) .. إن الشيطان وحده يمشى فى عواصف كهذه .. »

يقول وهو يتجشأ ، ويحمل المشعل فى يده اليسرى :

ـ « لو كان هذا عابر سبيل يا امرأة ، فعلينا أن نمنحه المأوى .. هذا هو قانون الملك .. »

وعلى سبيل الاحتياط امتدت يده اليمنى إلى البلطة ، وحملها ثم دنا من الباب متربصًا وصاح :

ـ « مَنْ ؟ »

ـ « عابر سبيل يبغى المأوى والمأكل ومستعد لدفع الثمن .. »

ـ « من أين ؟ »

ـ « من الشمال حيث يلتهم فرسان السلت اللهيب ، وتصطرع شياطين البحر للظفر بأرواح البحارة .. »

كان الصوت قويًا عميقًا آمرًا ، لكن لم يكن فيه ما يوحى بالخوف أو التطيّر .. وامتدت يدُ الحطاب تدفن البلطة فى الأرض القذرة ، ثم تزيح المزلاج الهائل وتفتح الباب ..

مع الداخل تأتى العاصفة وقطع الثلج تقتحم الكوخ .. تتراقص النار فى الموقد ، وشهقة رعب وبرد تأخذ بأنفاس الزوجة والأطفال ..

فى اللحظة التالية كان قد دخل الكوخ وانغلق الباب ..

ـ « وحصانك إن كان معك واحد ؟ »

ـ « نفق .. إن البهائم لأعجز منا عن تحمل هذا الطقس .. »

وجلس الغريب إلى المنضدة الخشبية العتيقة التى صنعها الحطاب بنفسه ، وثبت أجزاءها بالحبال ..

من الغريب أن وجهه ظل فى الظل الذى تسدله العباءة على ملامحه ، ولم تنجح النار فى إزاحة هالة الغموض من حوله ، لكن ندَف الثلج راحت تذوب على كتفيه ، وتتحول إلى قطرات من ماء يهوى إلى الأرض محدثة صوتًا ..

بليك ! بليك !

وبيد مرتجفة تجلب له الزوجة بعض الحساء فى وعاء صغير ، فيمدّ يده إليه ويرفعه إلى فمه ويرشف عدّة رشفات ..

ساد الصمت .. من الغريب أن صوت العاصفة بالخارج غدا أقل صخبًا ، وفى سرّه تمنى الحطّاب لو يتكلم الرجل .. لو يثرثر .. فقط ليزيح رهبةَ هذا الجو ..

إن الهلع يحتاج إلى خيال والخيال يحتاج إلى ذكاء ، والذكاء كان أبعد شىء عن عقول هؤلاء الفلاحين القدامى ، لكن كان لديهم مخزون جاهز كاف من أساطير الشياطين ووحوش البحر ؛ يكفى لجعلهم يرتجفون ..

فى النهاية تكلم الغريب :

ـ « حساء طيب أيها الحطاب .. »

وامتدت يده إلى طيّات ثيابه ، وبحث حتى أخرج قطعة من معدن أصفر براق : ذهب .. قذفها دون مودّة حتى استقرت على المنضدة محدثة رنينًا ..

ـ « ذهب ! أنا دومًا أدفع بالذهب .. »

ارتجف الحطّاب ، فهو لم يكن فى حياته قد لمس عملة ذهبية ، ولم تكن فى مجتمعهم عملات ، بل هم يمارسون المقايضة لو احتاجوا إليها .

ـ « سيدى .. هذا كثير .. »

ـ « بل هو ذهبك ، فخذه .. »

بيد متسخة مرتجفة مدّ الحطاب أنامله إلى قطعة

العملة ، ودسّها فى ثيابه .. وقال لنفسه : والله لو كان هذا هو ثمن استضافة هذا الغريب المنفر ، فهى صفقة لا بأس بها أبدًا ..

دار الغريب بعينيه حتى وقعتا على وجوه الأطفال الجالسين جوار المدفأة ، وتساءل :

ـ « هؤلاء أطفالك ؟ »

فى تملق قال الحطاب :

ـ « نعم يا سيدى .. (جاك) و (جون) و (إليصاباط) .. »

ـ « أطفال طيبون .. طعام لذيذ المذاق .. أعنى الأطفال .. »

تساءل الحطاب :

ـ « إلى أين أنت ذاهب يا سيدى ؟ »

واصل الغريب احتساء عشائه ، وقال :

ـ « ذاهب إلى (لوثيان) .. (إدنبرة) .. إن معى رسالة عاجلة إلى آل (ستيوارت) .. »

قال هذه العبارة كأنما لا يجد فيها شيئًا غريبًا ، وأحسّ الحطاب بأنه يريده أن ينزع هذا اللثام .. ستستقر الأمور عندها .. لكن القصة تفسر نفسها الآن .. هذا الغريب نبيل ثرى قادم من إمارة (سكوتلاند) أو (ستراثكلايد) يحمل رسالة ما (فى الغالب ذات طابع تآمرى) لملوك (ستيوارت) فى (لوتيان) ..(*) وماذا يهمك من كل هذا ؟ السادة يروحون ويجيئون ، يتولون الحكم أو يعدمون ، لكن حياتك هى هى .. لن تتغير أبدًا .. (طعام لذيذ المذاق .. أعنى الأطفال) ؟ هل قال : (طعام لذيذ المذاق.. أعنى الأطفال ؟) .. ما معنى هذا ؟ لكن الرجل يتكلم بهدوء ورصانة فمن الواضح أن أذنى الحطاب خانتاه ..

قال الحطاب :

ـ « أنت كريم المحتد إذن أيها الغريب ، ولعلك أمير من الأمراء ، أو قائد جيش .. »

ـ « لنقل إننى عابر سبيل لا أكثر .. »

(*) فى هذا الوقت كانت (أسكتلندا) عبارة عن ثلاث إمارات هى (سكوتلند) ، و (لوتيان) ، و (ستراثكلايد) .



بيد متسخة مرتجفة مدّ الحطاب أنامله إلى قطعة العملة ، ودسّها فى ثيابه !

من جديد ساد الصمت ، ثم أصدر الغريب صوت تثاؤب .. فقد ثقل جفناه ، وعابثه النوم حتى قهره ..

أشار الحطاب إلى كومة من الجلود فى ركن المكان ، وقال :

ـ « يؤسفنى أننا لانملك مضجعًا أكثر راحة .. ستنام ليلتك هناك ، ولسوف أنام حيث أنا ، وتنام المرأة والأطفال فوق المدفأة .. »

هزّ الغريب رأسه بما يعنى أنه موافق على هذا الترتيب ، وفى تؤدة نهض .. فارع الطول مهيبًا مريعًا يلقى على الجدار بظل أشد هولاً ، واتجه إلى ركن الكوخ فافترش الأرض بعدما رتب الجلود قليلاً ، وسرعان ما انتظم تنفسه ..

قالت الزوجة فى رعب :

ـ « من هو ؟ إنه مخيف .. »

رفع زوجها إصبعًا إلى فمه ، وهمس :

ـ « صه يا امرأة ! إنه عابر سبيل نبيل ودفع بالذهب .. هذا كل ما يهمنى فى اللحظة الحالية .. »

كان الجليد يرتطم بالكوخ من الخارج ، وأدرك الزوجان أنهما لن يناما هذه الليلة .. لا أحد ينام بينما هذا الضيف الغامض هنا ..

لا بد من الجلوس ومراقبته ..

قالت الزوجة للأطفال فى خشونة :

ـ « الآن تنامون .. تعالوا لتتسلقوا المدفأة .. »

ومشت بهم فوق أرضية الكوخ القذرة ، وكانت الإضاءة ضعيفة حقًا لكنها استطاعت أن ترى القطرات على الأرض ..

ـ « (ويليام) .. ما هذه القطرات ؟ »

وجثت على ركبتيها ، وتلمست الغبار .. نعم لا شك فى هذا .. هذه قطرات دم !

انتقلت بعينيها إلى الغريب النائم ، وأدركت أنه هو مصدر هذه القطرات .. صوت البليك ـ بليك الذى سمعته لم يكن سببه الماء ، بل هو شىء أثقل وأكثف ..

مدت إصبعها لزوجها تريه اللطخة الحمراء :

ـ « هل ترى ؟ هذا الغريب كان ينزف وما يزال ! »

ـ « مستحيل يا امرأة .. لقد كان ثابت الجنان وهادئًا ، فما أحسب جريحًا يمارس هذا الهدوء كله ..»

ـ « إن الدماء لم تأت منك ولا منى ولا من الصبية ..»

هنا دوى صوت غريب ..

صوت استطاعا تمييزه فى العاصفة ، ودون جهد عرفا مصدره ..

لو كان هذا صهيل حصان بالخارج ـ لو فرضنا جدلاً أن حصانًا يستطيع البقاء حيًا فى هذا الطقس ـ فلماذا زعم الغريب أن حصانه قد مات ؟! »

هتفت وهى ترتجف :

ـ « (ويليام) ! هذا الغريب يكذب ! والأدهى أنه لا يريحنى على الإطلاق .. »

نظر إلى الدماء على الأرض ..

للأسف كان يتمنى لو صارحها بحماقتها ؛ لكن الأمر واضح ولا يحتاج إلى شكوك أخرى .. أتراه شيطانًا جاء من المستنقعات ؟

قال لها وهو يتحسس بلطته :

ـ « سأنادى باقى الحطابين .. إن (هود) و(إدجار) سيحطمان عنقه لو كان كما أحسبه .. »

تحسست يده منذرة ، ولوحت بإصبع أمام شفتيها للأطفال كى يلزموا الصمت ، ثم هتفت فى الظلام :

ـ « قبل أن تفعل علينا أن نلقى على وجهه نظرة .. نظرة واحدة .. »

ـ « ولمه ؟ »

ـ « حتى لا يسخر الرجال منك ، لأنك هلعت كل الهلع من عابر سبيل برىء .. »

ـ « فكرة لا بأس بها .. »

وأمسك بالبلطة ، واتجه بحذر نحو الغريب الذى كان راقدًا على جنبه الأيسر ووجهه نحوهما ..

ـ « قربى الشعلة يا (مارى) ، فأنا لا أبصر شيئًا ..»

قربت الشعلة أكثر .. كان الرجل غافيًا كأنما لم ينم فى حياته ، وكانت أستار مسوحه تغطى ملامحه وتغمرها بالظلال ..

لهذا ـ بحذر ـ مدّ الحطاب يده يزيح المسوح عن الوجه ..

ولم يكن ما رآه سارًا ..

* * *

بعد يوم واحد اجتاح الوباء إمارة (سكوتلاند) كلها ، فقتل من قتل ، وتكدس الموتى بالمئات فى الطرقات ، فلم يجدوا من يدفنهم لأن اللحادين ماتوا بدورهم ..

كتب الأب (جستنيان) ، وهو من المبشرين القلائل الذين تواجدوا فى هذه الأصقاع فى هذا الزمن :

ـ « يبدأ المرض بحمى وآلام فى الرأس وفقدان شهية للطعام ، ويغدو للوجه لون أحمر كأنما الدم يوشك على الانفجار منه ، وكذا تتلوّن العينان بالدماء ..

« تسودّ الأطراف وتتصاعد منها رائحة نتنة ، بينما يذوب اللحم ذوبانًا ، وبعد أيام ستة يمتلئ الجسد ببقع حمراء تصغر لتكون كالبراغيث ، وتكبر لتكون كقطعة الذهب .. وفى مرة لا تمس هذه البقع الوجه ..

« كان من تصيبه هذه البقع يجنّ ويعوى كالكلاب ، وكم من مريض فرّ واقتحم ديار الأصحاء ، لأن الكلمة ذهبت فى الناس أن من ينقل المرض إلى سليم يُشفَ من مرضه هو ..

« ندر الطعام ، وكثر السلب والنهب ، وأحرق الناس أجساد المرضى فى الطرقات وبعضهم كان حيًا .. وجاء الفرسان يعملون النار فى الأكواخ بغية تطهيرها من الشرّ .. »

« لئن لم ينقذنا الرب فنحن جميعًا هالكون .. »

انتهت كلمات الأب ، لكن رنينها مازال يدوّى عبر القرون ، ومازلنا نتساءل عن كنه هذا الوباء المريع ، والكيفية التى انتقل بها ..

لكنه انتهى أخيرًا كما ينتهى أى وباء بعدما يستنفد دورته ، ولا توجد إحصاءات دقيقة ـ بالطبع ـ عن عدد الضحايا ، لكنهم بالطبع يقدرون بالآلاف ككل أوبئة العصور الوسطى تلك ..

نترك الآن القرن الثالث عشر ، ونترك شمال انجلترا ، ونتجه إلى مكان وزمان مألوفين لنا ..

القاهرة .. القرن العشرون ..

* * *

٢ ـ (حمزة) وأنا ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ..

* * *

يذكر من قرءوا (رعب المستنقعات) منكم ـ الكتيب رقم ٢٣ ـ أننى تلقيت بالبريد مفكرة عتيقة تجعدت صفحاتها ، وكانت ممن يُدعى (س . ب) ، وحدث جدل عما إذا كانت (س . ب) ترمز إلى (ساندرا بيكيت) أم لا .. إذا كان هذا صحيحًا فالقصة كانت من أفظع وأغرب ما مرّ بى ..

أما إن كانت (س . ب) ترمز بشكل ما إلى (سارة ستوكلى) ، فهى مجرد قصة بوليسية أخرى ..

حسن .. لم يعد الوقت وقت هذا النقاش .. المشكلة الآن فى العبارات التى تلفظ بها (عزت) إذ وجدها فى المفكرة :

* * *

مجموعة النداء الأولى :

أرتميس ـ كاسيس ـ هرملاكايوس .

ثم بيركادوس (أربع مرات) .

مجموعة النداء الثانية :

أشيوست ديمترا ـ إرسادوك .

(فى وجه القمر) .

ثم :

إينياس (تعمل وحدها دون معين) ..

* * *

« لا تحاول ترديد هذه العبارات بصوت يعلو على صوت وجدانك إلا بنية الاستعمال ، فيما عدا هذا تتم القراءة سرًا وبالعينين فقط .. »

* * *

يذكر القراء أننى كنت عند (عزت) فى شقته أبدى انبهارى بتماثيله العجيبة ، حين تناول المفكر وراح ـ على سبيل التطرف ـ يقرأ تلكم الكلمات بصوت جهورى ، ولم أتنبه إلا متأخرًا جدًا ..

ولما كان الأمر كله يوحى بخدعة ما ، فقد تناسيت ما حدث ..

لقد كان كل هذا لعبًا بالنار ، لكن النار لا تحرق دائمًا .. أحيانًا نلعب بالنار وننجو .. وسل عن هذا أى حاو فى الأسواق ..

عند الفجر عدت إلى شقتى ، وغرقت فى تساؤلات لا نهاية لها عن حقيقة ما حدث لتلك المجموعة الظريفة من الأسكتلنديين ؛ التى قررت أن تمضى إجازة العيد قرب المستنقعات ..

كما فهمنا جميعًا كانت فكرة الزوج غريب الأطوار (أندرو) هى إعادة إحياء تقاليد وطقوس قبائل (السلت) ..

أولاً : كان هناك شىء مريع يُدعى (إكلييوس) .. وهذا سيئ ..

ثانيًا : كان (إكليبوس) يطلب ضحايا بشرية يتم غمرهم فى مياه المستنقع .. وهذا شنيع ..

ثالثًا : بعد غمر الضحايا ؛ يتم استدعاء (إكليبوس) بنداء معين ، هو ـ فى الغالب ـ تلك الكلمات الغامضة .. وهذا مثير للهلع ..

رابعًا : يبدو أن (أندرو) كان أحمق .. لم يوجد شىء يدعى (اكليبوس) .. الشىء الوحيد الذى كان موجودًا هو خاصية غريبة مخيفة لهذه المستنقعات ، بالنسبة للجثث التى تغمر فيها .. وهذا يبعث على القشعريرة ..

والنصيحة الوحيدة التى يمكن استخلاصها من القصة هى : حين تقتل أحدًا فلا تغمره فى المستنقعات قرب ممر (سبتال أوف جلينشى) ، وهى نصيحة مفيدة لكنها لا تهم سوى الإخوة السفاحين الأسكتلنديين ، ولا أظنها تهم القارئ كثيرًا ..

* * *

بعد أيام كنت فى مكتبى بالكلية ، عاكفًا على فحص بعض عينات نخاع الدم لمريض بسرطان الخلايا المشعرة .. وكان (سامى) الطبيب الشاب الذى يعمل معى يحاول إقناعى بأننى أحمق ، بينما كنت أحاول إقناعه بأنه شاب بلا خبرة ..

أقول : كنت منهمكًا فى هذا النشاط ؛ حين جاء من يقول لى إن الدكتور (حمزة الصاوى) يبغى لقائى ..

(حمزة الصاوى) ؟ أنا لا أعرف أحدًا بهذا الاسم ، وهو اسم غريب له رنين ملفّق كما يحدث فى القصص .. دائمًا ما يكون أبطال القصص لهم أسماء غريبة لا نسمعها فى الحياة الواقعية إلا نادرًا ، وأرجو هنا ألا يكون هناك (حمزة الصاوى) فعلاً ويرفع علىّ قضية ، فأنا لا أقصده البتة ..

دعوته إلى الدخول فوجدت التالى :

هو رجل فى الخمسين من عمره ، له لحية بيضاء أنيقة حسدته عليها ، وعوينات من الطراز المخصص للقراءة فقط ، لهذا هى على شكل هلالين يتدليان على

قصبة أنفه ، وعلى رأسه كاسكيت من الطراز المثلث الذى يضعه (سوكارنو) على رأسه ، وإن كان من الفراء ..

أما عن ثيابه فكانت غير متناسقة الألوان تشى بذوق شنيع أو عمى مطلق ، ولم تكن غاية فى النظافة أو التنسيق ..

هذا طراز أعرفه وأفهمه على الفور .. لقد عرفته حين قابلت (كولبى) النصاب اليهودى الذى أقنعنى يومًا أننى تناسخ لشخصية (إدجار آلان بو) ، وهأنذا أعرفه ثانية .. هذا الرجل مدع متعصب وربما نصَّاب أو مخبول .. لا شك فى هذا ..

لكن بماذا يحاول إقناعى هذا الوافد الجديد ؟

جلس وجفف عرقه ، وراحت شفتاه تهتزان كأنما يردد شيئًا ما فى سرّه ، ثم بدأ الكلام :

ـ « أريد الكلام معك على انفراد يا دكتور (رفعت) .. »

ـ « نحن على انفراد بالفعل .. »

وأشرت لـ (سامى) الذى جلس متصلبًا يرمق الرجل ، كأنما هو طفل يرى الخرتيت فى حديقة الحيوان للمرة الأولى فى حياته ..

تنبه (سامى) فنهض وعيناه لا تفارقان الرجل ..

قال الرجل بعدما اطمأن إلى أننا وحدنا :

ـ « دكتور (حمزة الصاوى) .. »

ـ « لقد عرفت هذا .. »

وناولنى بطاقة لها رائحة زيتية ثقيلة كتب عليها ما توقعته :

دكتور / حمزة الصاوى
خبير فى الروحانيات والتنويم المغناطيسى

ـ « تشرفنا يا دكتور .. ترى فى أى فرع من العلم نلت الدكتوراه ؟ »

جفف عرقه بمنديله المحلاوى العملاق ، وقال :

ـ « إنها دكتوراه فخرية فى علوم الروحانيات ، نلتها من جامعة (فارنا) .. »

كنت أتوقع هذا أيضًا ، وعلى المستريب أن يذهب إلى جامعة (فارنا) لسؤالهم .. هذا بالطبع لو كانت هناك جامعة فى (فارنا) ..

ـ « بمَ يمكننى أن أساعدك ؟ »

مدّ يده فى جيبه ، وأخرج مجموعة من الأوراق الصفراء كلها لها ذات الرائحة الزيتية الخانقة ، وقال :

ـ « بأن تصغى إلى القصة من بدايتها .. »

* * *

قال الدكتور (حمزة) :

ـ « لا أدرى متى ولا كيف وجدت أننى أتمتع بموهبة الوساطة الروحية ، لكننى أعتقد أن هذا بدأ مع المراهقة ..

« إن سن المراهقة تمتاز بتحولات نفسية ومعنوية رهيبة ، ويكون الإنسان وقتها فى وضع هش للغاية يسمح له بالمسّ أو أن يكون وسيطًا مناسبًا للأرواح .. »

لست موافقًا تمامًا على هذا ، ولا أفهم كيف يتحدث المرء بثقة مطلقة عن شىء لا يعرف تفاصيله إلا اللّه (تعالى) ، لكننى على الأقل أعرف ما يقولون عن هذه الأمور .. الفارق واضح هنا .. أعرف كل مايُقال ، لكننى لا أعرف شيئًا عن مدى صحته ..

يقولون : إن المراهقة هى السن المثلى لبدء الوساطة الروحية ، وخاصة الفتيات المراهقات حين يبدأن فى الأنين ليلاً والكلام بصوت غليظ رجولى ، مع أصوات الخدوش فى الفراش حين ينمن ..

علماء النفس يتحدثون عن الاضطراب النفسى والتفاعلات الهستيرية والكبت ، بينما يتحدث الروحانيون عن المسّ والوساطة ..

لقد عولجت هذه الفكرة ببراعة شديدة فى قصة

(طارد الأرواح الشريرة)(*) للكاتب الأمريكى اللبنانى (ويليام بيتر بلاتى) ، وقد قرأت الرواية وشاهدت الفيلم الرهيب فى (لندن) ، فلم تعد الفكرة تثير دهشتى ..

الخلاصة : يقال إن المراهقة تشبه (ساعة الذئب) من حيث الضعف والهشاشة والقابلية للإيذاء الروحى ..

قال د . (حمزة) :

ـ « تدريجيًا عرفت جلسات تحضير الأرواح ، وكنت ألعب فى أكثرها دور الوسيط الذى يغطى وجهه بمنديل ويدخل فى سِنة الوساطة ، وعن طريقه تتكلم الأرواح فى الظلام ، وتكتب وتفعل .. وفى الغالب كنت أفيق من السِنة ناسيًا كل شىء عما حدث ، لكنى كنت أجد وجوهًا ذاهلة وعيونًا زجاجية ترمقنى ، ويقولون لى إننى فعلت أغرب الأشياء وكشفت عن أكثر الأسرار غموضًا .. رباه ! لكم من كنوز وجدت ، وكم من أوراق مخبوءة أخرجت ، وكم من رسائل كتبت ..

(*) (Exorcist)

« على أننى فى سن الخامسة والعشرين بدأت أدرس موهبتى بعناية ، وصارت لى القدرة على أن أتحكم فيها كما أريد .. »

« وتدريجيًا صارت لى (شلة) أصدقاء فى عالم الأرواح ! »

* * *

٣ - خطر يتحرك ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال ..

* * *

مازلنا إذن مع د . (حمزة) فى قصته الغريبة بعض الشىء :

- « كان من هذه الأرواح من أعرفه ومن لا أعرفه .. من أرتاح إليه ومن يشعرنى برهبة أجد صقيعها يزحف على فقرات ظهرى ..

« لكن زائرًا معينًا كان يجىء لى من وقت لآخر ، ويثرثر معى ، وكنت أحب صحبته برغم لغته الإنجليزية القديمة الغريبة بعض الشىء ، وقد احتجت إلى ثلاثة أعوام كى أعرف أنه راهب كاثوليكى كان يعيش فى (أسكتلندا) فى زمن بعيد جدًا .. جدًا ..

« ربما كان ذلك فى أثناء ما عُرف بالقرون الوسطى، لكنى أعتقد أن هذا كان قبلها .. لا أدرى حقًا .. »

تراجعت إلى الوراء فى مقعدى لأتفحص (حمزة) بدقة ، وقلت له بلهجة حاولت أن تكون محايدة :

- « أنت صادقت مبشرًا كاثوليكيًا من (أسكتلندا) ، ومن نحو عشرة قرون ؟ ألا ترى شيئًا غريبًا فى هذه القصة ؟ »

رشفَ رشفتين من القهوة التى جلبتها له ، وقال :

- « معذرة ! لا أفهم ما ترمى إليه .. »

كنت أعرف أن هذا الطراز من الرجال حساس جدًا ، سريع الغضب ، وغضبه يعنى دومًا الصراخ ولترًا من اللعاب يسقط فوق رأسى (لأن هؤلاء القوم لا يتكلمون دون رذاذ لعاب) ، لذا آثرت أن أكون حذرًا وأتكلم فى كياسة :

- « أعنى أن المعتاد هو أرواح من طراز (هتلر) .. (بونابرت) .. (ريّا) و(سكينة) .. لكنى لم أسمع عن واحد استحضر هذا التخصص الدقيق فى الأرواح .. »

- « لأن الآخرين نصابون ! »

قالها فى عصبية بدأت تترعرع ، وأردف :

- « أكثرهم نصابون .. لهذا لايتحدثون إلا عن أرواح بسيطة سهلة نسبيًا .. يمكنك دومًا أن تتكلم كـأنك (نابليون) ، لكن من العسير أن تلفق كلام وأفكار راهب من العصور الوسطى مالم تكن صادقًا .. وعلى كل حال أنا لم أختره .. هو اختارنى .. »

- « وما اسم هذا الراهب ؟ »

- « اسمه (جستنيان) .. وقد مات فى وباء غامض .. »

هززت رأسى بمعنى أن هذا معروف ، وقلت :

- « إن تاريخ القرون الوسطى ليس سوى سلسلة لاتنتهى من الأوبئة ، وليست كلها طاعونًا دمليًا .. لقد هلك الآلاف بفعل (الإسقربوط) وهم ينزفون دمًا ، قبل أن نعرف أن علاجهم هو بعض عصير الليمون .. ولقد هلكت جيوش كثيرة بفعل الزحار الأميبى والكوليرا .. وكان للتيفوس منزلة خاصة حيثما وجد القمل .. »

لم يعلق ، وفتح الأوراق الصفراء وراح يقرأ :

- « الوباء يبدأ بحمى وآلام فى الرأس واحمرار فى

العينين والوجه ، ثم تسودّ الأطراف وتتآكل .. بعدها تنتشر بقع دموية تحت الجلد فى كل مكان ماعدا الوجه ، ويصاب المريض بجنون فيصرخ ، ويهلوس ، ويركض محاولاً الفرار من فراشه .. ولم ينجُ أحد قط متى ظهر ذلك الطفح الدموى .. »

- « وهل كان شيء كالبيضة يظهر فى أعلى الفخذ ؟ »

- « لا .. »

- « ومتى كان الطفح يظهر ؟ اليوم الخامس أو السادس ؟ »

- « نعم .. اليوم السادس .. »

قلت وأنا أرشف قهوتى بدورى :

- « ليس الوباء غامضًا إلى هذا الحدّ .. إنه التيفوس الوبائى ، ومن الواضح أن أوبئة كثيرة من (الطاعون) ، تلك الأوبئة التى تتحدث عنها كتب التاريخ ، ليست فى الواقع سوى حمى التيفوس .. إنك تجد نفس الوصف تقريبًا لدى (هيرودوت) و (ديودور الصقلى) وأطباء الحملة الفرنسية وحرب القرم .. لقد كان للتيفوس دور أهم بكثير مما كنا نحسب .. »



لم يعلق ، وفتح الأوراق الصفراء وراح يقرأ : ـ « الوباء يبدأ بحمى وآلام فى الرأس واحمرار فى العينين والوجه ..

قال د . (حمزة) :

ـ « لقد وصف الراهب المرض بدقة لكنه لم يعرف سببه .. وعلى كل حال هو نفسه قد مات فى أثناء محاولته تمريض المصابين .. »

قلت وأنا أخطّ على الورقة مستطيلات لا معنى لها (وإن كان الخبراء يقولون إنها تدلّ على الرغبة فى الموت) .

ـ « هذا أيضًا طبيعى .. يوجد نوعان من التيفوس : نوع وبائى ينقله القمل ، ونوع متوطن تنقله البراغيث .. من السهل أن تنتقل قملة إلى ثياب من يقوم بتمريض الحالات .. »

ثم أردفت وقد نفد صبرى :

ـ « مازلت لا أرى خلاصة هذه القصة .. »

قال د . (حمزة) وهو يلعق (تنوة) القهوة من على شفتيه :

ـ « كانت هذه مجرد ثرثرة بريئة من التى نتبادلها

الأرواح مع الوسطاء ، ولم يطل الرجل الكلام ، لكنى فهمت مدى قسوة وسواد تلك الأيام التى عاشها هناك ..

« منذ أسبوع واحد جاءنى وقال لى إن شيئًا ما يحدث .. شيئًا شريرًا .. هو شعر به ، وقد انفتحت أبواب الجحيم بهذا المقدار .. »

ومد سبابته الغليظة وأشار بإبهامه نحو نصفها .. ثم أردف :

ـ « قال لى إن الكلمات السبع عادت تتردد .. هو سمعها وشعر بها .. »

* * *

كنا جالسين فى مكتبى ؛ أحاول فهم ما يريد قوله وأمنعه من إضاعة وقتى فى يوم حافل بالعمل كهذا ..

قلت له وقد انتقلت من مرحلة رسم المستطيلات إلى رسم قبور حقيقية عليها شواهد ، وتقف فوق كل منها بومة حادة النظرات :

ـ « ما هى هذه الكلمات السبع ؟ »

مط (حمزة) شفته السفلى علامة الجهل ، وقال :

ـ « الله (تعالى) بهذا أعلم .. كل ما يعرفه الرجل ـ أو من كان رجلاً ـ أنها كلمات بلغة قوم وثنيين عاشوا فى شمال (أسكتلندا) .. كلمات سحرية آثمة لها القدرة على .. على استدعاء الوباء ! »

هنا اتخذت وضعًا فى الجلوس هو إلى الوقوف أقرب ، وقلت فى عصبية :

ـ « يا عزيزى يمكننى أن أوافقك إلى هذه النقطة ، بعد هذا يفترق رأيانا .. أنت تعرف أن كل وباء له جرثومة وطريقة انتقال ، وظروف معينة تسهل انتشاره فى حقبة زمنية معينة بدورها .. لم يعد من السهل أن نتحدث عن التعاويذ الشريرة كما كان يحدث فى القرون الوسطى ، وكما ما زال يحدث لدى البدائيين .. »

ابتسامة معسولة شاعت على وجهه ، كما لو كان يدعو طفلاً إلى التعقل ، وقال :

ـ « اصبر على رزقك ! دع لى الفرصة لاستكمال كلامى .. »

ـ « حسن .. سأصبر .. »

ـ « لقد ترددت هـذه الكلمات السبع مرتين هذا العام .. وقد شعر بهما ، الأولى فى أرضه هو .. والثانية هنا فى مصر .. وهو لا يعرف من نطق بهما فى المرتين ، لكنه ما كان ينبغى أن يفعل .. يقول إن الوباء سيأتينا زائرًا ، ولسوف يرحل بعد يومين تاركا طريقًا طويلاً من الأرض الخراب ، والقتلى والروائح النتنة والدماء وأنين المحتضرين .. »

ـ « أعوذ بالله ! »

ـ « لقد سألت الراهب عن سبيل منع هذا الشرّ كله ، فقال إنه لا يعرف .. لكنه يعرف كيف يمنع المزيد منه .. لابد من القضاء على الكلمات السبع كى لا تكون مصيدة للسُذّج ومطمعًا للأشرار .. كثيرون سيلفظونها غير عالمين بخطرها ، وكثيرون سيلفظونها عامدين متعمدين طلبًا لسيطرة أو هيمنة ، ومن جديد هم لا يعلمون خطرها .. »

قلت لـ (حمزة) وقد بدأ الأمر يروق لى :

ـ « هل تعنى أن هذه الكلمات السبع من تراث (السلت) السحرى ؟ »

ـ « لا أعرف .. إنها من تراث قبائل وثنية عاشت فى شمال (أسكتلندا) .. »

ـ « لعلهم (السلت) أو (الفايكنج) أو (الجرمان) .. لن نعرف أبدًا ..

ولماذا هى سبع ؟ »

ابتسم ابتسامته المعسولة ، وقال :

ـ « سؤال غريب .. ولماذا أصابعك خمسة ؟ ولماذا الأسبوع سبعة أيام ؟ »

كان محقًا ، غير أن لرقم (سبعة) أهمية خاصة فى وجدان البشرية الجمعى لا يمكن فهمها .. سأتحدث عن هذا بتفصيل أكثر فى (أسطورة الرقم المشئوم) ، لكنى وجدت أن الأديان تعطى أهمية خاصة لرقم سبعة .. فى الإسلام ذكر القرآن الكريم السموات السبع والبقرات السبع ، وفى المسيحية تجد الأسرار السبعة ، وفى اليهودية تجد الشمعدان السباعى .. فى سحر اليهود المسمىَ (كابالا) ، تجد أن الطبقة السابعة من شجرة الحياة هى (نتزاخ) وتساوى كل ما هو قوى فى الحياة ..

أيام الأسبوع سبعة .. السلم الموسيقى جعله (فيثاغورس) سبع نغمات .. أبراج (بابل) تتكون دومًا من سبعة طوابق .. التقارير الطبية تنصح بعلاج على ٢١ يومًا (٣ × ٧) .. ألوان قوس القزح سبعة ..

حقًا ثمة لغز رهيب يحيط بهذا الرقم .. سبعة ..

واليوم توجد كلمات سبع ، يزعم هذا المتعصب أنها قادرة على استدعاء الوباء .. وباء لا نعرف عنه إلا أنه يشبه التيفوس ، والأظرف هو أننى لا أعرف دورى فى هذا الموضوع ..

* * *

٤ - (عزت) وأنا ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ..

* * *

مازلنا إذن - أعزائى المستمعين - مع د . (حمزة الصاوى) فى جلستنا التى طالت فى مكتبى ..

أعترف بأننى بدأت أحب هذا كله .. فالقصة تحوى لعنة قديمة ووسيطًا روحيًا مخبولاً ، ووباء أسكتلنديًا عتيقًا .. هذا جو ساحر بشرط ألا أتورط فيه بشكل ما ، وأنا لم أعد ابن البارحة .. لن يستطيع أحد إقحامى فى هذه القصة السخيفة أبدًا ..

قال د . (حمزة) :

- « قالت لى الروح إن البداية والنهاية توجد عند معالج مصرى يُدعى (إسماعيل) .. (رفعت إسماعيل) .. هو من يعرف مصدر الكلمات السبع ويعرف متى لفظت ، ويعرف كيف يقضى عليها ! »

كنت أشرب جرعة ماء لحظتها ، فانطلق الرذاذ فى وجهه مع الصوت المعهود لمن يفاجأ بشىء لم يتوقعه :

ـ « بوش ش ش ش ش ! »

أخرج منديله المحلاوى الذى يصلح كفنًا له بعد موته ، وراح يجفف وجهه وهو يردد :

ـ « خيبك الله ! ألا تستطيع أن تكون أكثر حذرًا ؟ »

ـ « نعم لا أستطيع .. لقد كان هذا آخر ما توقعت .. هلا تفضلت بأن تشرح من أين لى العلم ، وأنا أسمع القصة منك للمرة الأولى ؟ »

دسّ المنديل فى جيبه ، ونهض قائلاً :

ـ « لا أعرف .. لقد كلفتنى الروح بمهمة وقد قمت بها ، والآن جاء دورك أنت .. »

ثم صافحنى فى حرارة :

ـ « إننا نعتمد عليك كى تنقذنا من التيفوس ! وداعًا ! »

صحت وأنا أضغط على يده لأستبقيه :

ـ « لحظة ! كيف وجدت مكانى ؟ لا بد أن هناك ألف (رفعت إسماعيل) فى القاهرة وحدها .. »

فى لؤم قال :

ـ « وهل يخفى القمر يا دكتور ؟ كنت من هواة البرنامج الإذاعى (بعد منتصف الليل) .. صحيح أنه ينمّ عن جهل مطبق بعالم (الميتافزيقا) وأقرب إلى التسلية ؛ لكنى لم أفوّت حلقة واحدة ، ولهذا عرفت أنك (رفعت إسماعيل) المطلوب .. »

وخلص يده وقال :

ـ « ستجد عنوانى ورقم هاتفى على ظهر البطاقة ، لو أردت أن تستفسر عن شىء .. »

ـ « أحقًا ؟ وهل لديك بللورة سحرية وبندول وما إلى ذلك ؟ »

مطّ شفته السفلى فى احتقار ، برغم أننى لم أتعمد الإهانة ..

وانصرف تاركًا إياى مع حيرتى وأفكارى المضطربة ..

* * *

ليومين أو ثلاثة نسيت الموضوع تمامًا .. لقد صار من العسير علىّ أن أتذكر كل المعتوهين الذين ألقاهم فى حياتى ..

وفى تلك الليلة أويت إلى فراشى فى الثانية بعد منتصف الليل ، وكان ألم ممض يشق صدرى ، فتذكرت المقولة الشهيرة : ألم المعدة بعد سنّ الأربعين قد يشير إلى القلب .. ألم القلب قبل سن الأربعين قد يشير إلى المعدة .. من يدرى ؟ قد لا تكون نوبة قلبية بعد كل شىء .. لكن فكرة الموت بدت لى رهيبة .. أنام الآن ثم لا أصحو أبدًا .. أن تكون هذه آخر علاقتى بضوء الشمس والجريدة وطعام الإفطار ..

لهذا آثرت أن أنتظر النتيجة (قلب أم معدة ؟) فى الفراش وأنا بكامل يقظتى ، وقد ارتديت ثيابى كاملة تحسبًا للأسوأ ..

وبعد ساعة أدركت أن الأمر يزداد سوءًا .. القبضة العاتية التى لا تكف عن اعتصارى جاعلة التنفس عسيرًا بحق ، وذلك الشعور بانعدام الحيلة الذى تحدثت عنه كل كتب الطب من عهد (ابن سينا) حتى اليوم ..

أخيرًا قررت أن التشخيص واضح : احتشاء ممتد فى عضلة البطن .. وبعبارة أبسط جلطة شريانية دمرت وتدمر جدار قلبى بنجاح تام ..

طلبت عدة أرقام بالهاتف لكن .. إما أن الجميع تحالفوا ضدى كى أموت الآن ، وإما أن ارتباكى جعلنى أخطئ طلب الرقم .. وبدأ الذعر يتملكنى ..

إن ثلاثة أقراص من (النتروجلسرين) لم تحدث أى فارق .. الأمر حقيقى مقلق هذه المرة .. ولكن كيف أجد عونًا ؟ لا يبدو أن أحدًا متيقظ فى داره من كل أطباء القاهرة ..

تحاملت على نفسى ، وخرجت إلى الصالة .. رباه ! الألم يتزايد .. ثمة احتمال لا بأس به أن أموت الآن حالاً ..

مدخل الشقة .. الإضـاءة الخافتـة .. بـاب شـقة (عزت) ..

قرعت الجرس وقد بدأ الأنين يفلت من بين أسنانى برغمى .. افتح أيها الأحمق .. افتح يا أبله !

(عزت) على الباب بوجهه الضامر الأسمر ، يوشك أن يقول لى إن مقدمى لا يعنـى سوى المصائب ، ثم يرى وجهى فيتجمد ..

ـ « نوبة قلبية .. لا أحد يرد .. »

وكان هذا آخر ما قلت قبل أن يفقدنى الألم وعيى ..

* * *

فى العناية المركزة :

كنت راقدًا وقناع (الأوكسجين) على وجهى ، بينما ست ممصات تتشبث بصدرى العارى كممصات الأخطبوط ، وعلى (المرقاب) جوار الفراش رأيت المشهد المألوف .. لقد كان تشخيصى دقيقًا ..

فرغ الطبيب من إفراغ حقنة (المورفيـن) فى عروقى ، ثم قال باسمًا :

ـ « لا تقلق .. لن تمتد الجلطة أكثر .. »

وقال د . (رأفت) الذى استدعوه فى هذه الساعة :

ـ « هذا هو جزاؤك العادل .. لترات من القهـوة ، وأطنان من التبغ ، وتوتر وطعام غير منتظم .. لقد أحرقت شمعة حياتك من طرفيها كأنما تريد الانتهاء سريعًا لتتفرغ لأمور أخرى ! »

قلت له بصوت مكتوم من وراء القناع :

ـ « أرجو أن تكون سعيدًا .. إن رؤية المجرم يلقى جزاءه .. ممتعة دائمًا .. آى ! »

ابتسم فى عصبية ، وقال وهو يتحسس نبضى :

ـ « لن تموت هذه المرة غالبًا .. لكنهم هنـا يعدونـك بميتة سريعة ما لم تبدل أسلوب حياتك .. »

ورأيت وجـه (عـزت) يدنو على استحياء من الفراش ، كأنما يتوقع أن يزجره أحدهم .. كـانت عينـاه دامعتين وخوفه واضحًا .. حقًا إن هذا الفتى مخلص .. يجب أن يصاب المرء بالاحتشاء كى يدرك هذه الأمور ..

قلت له :

ـ « شكرًا يا (عزت) .. الأمور على ما يُرام .. يمكنك العودة إلى دارك »

قال فى ارتباك :

ـ « لا .. سأنتظر فى الخارج فى حالة ما إذا أردت شيئًا .. »

وهزّ رأسه وغادر المكان ..

نمت وصحوت .. ونمت وصحوت .. ونمت وصحوت ..

وبسؤال الممرضة عرفت أن لى هنا أربع ساعات لا أكثر !

يا للكارثة ! إننى إنسان ملول ، وأسوأ كوابيسى هو أن أظل هكذا لا أقرأ ولا أكتب ولا أعمل ولا أتكلم .. إلى متى ؟

هل هذا عقاب لى لأننى أصبت بنوبة قلبية ؟

وخطر لى أنه ربما كان واجبًا أن أطلب من (عزت) إحضار كتاب أقرؤه .. كتاب عن الأشباح والزومبيين متآكلى الأطراف ..

ولكن ....

(عزت) ؟

هنا تذكرت كل شىء عن المفكرة الصغيرة المهترئة ، وعبارات النداء الغامض فى بدايتها .. كم كان عدد الكلمات ؟ كان سبعًا ..

لقد قرأها (عزت) بصوت عال ، والمفكرة جاءت من (أسكتلندا) .. إن خيوط القصة تتشابك ، ويمكننى الآن فهم السبب الذى زج باسمى فى هذه القصة كلها ..

* * *

ولكن هل هذا وارد حقًا ؟

هل توجد كلمات سبع قادرة على إحداث وباء ؟ لا أظن .. الجزء العقلانى فى جمجمتى يرفضه ببساطة ، ولكن ذات الجزء العقلانى يتساءل عن التفسير إذا لم يكن هذا هو ..

مفكرة من (أسكتلندا) + سبع كلمات غريبة يبدو أن لها طابعًا سحريًا + روح راهب أسكتلندى يذكر اسمى ..

معادلة بسيطة جدًا حلّها هو أنه لا يوجد حلٌّ آخر ..

كنت قد بدأت أنفعل ، وراحت الموجات تركض على شاشة (المرقاب) متسارعة .. تبًا ! علىّ أن أهدأ قليلاً ..

ترى ما تبعات ما حدث ؟

وكيف يمكننى منع خطر لا أملك أدنى فكرة عن منشئه ؟

* * *

٥ - الزائر ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جعّدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ، لكن لا كأى كلمات ..

* * *

قلت للممرضة :

- « هلا تفضلت باستدعاء من يُدعى (عزت) ؟ إنه خارج العناية المركزة ، ويبدو كشبح أسود .. »

قالت فى ذكاء :

- « آه .. ذلك الشاب الذى لم يكفّ عن البكاء بسبب هزيمة فريق (الترسانة) ؟

سأناديه لك حالاً ! »

هكذا تتضح الأمور .. ما كنت لأستحق كل هذه الدموع من (عزت) على كل حال ، وأخيرًا دخل المكان

متهيبًا كعادته محمرّ العينين ، فقلت له : إننى حزين لما حدث لفريق (الترسانة) ، ولكن عليه أن يتماسك على كل حال ، ثم سألته :

- « هل حدث شىء غريب فى الأيام الماضية ؟ »

فكَّر قليلاً ، وغمغم وهو يحك ذقنه الخشنة :

- « لا شىء سوى نوبتك القلبية هذه .. ربما كانت هناك مشكلة ما مع منظم الغاز فى الموقد .. لكن .. لا .. لاشىء .. »

شكرته على عنايته بى ، ونصحته بأن يعود إلى داره ، فلن أحتاج إلى شىء عما قريب ..

- « وكم ستظل هنا ؟ »

- « لا أدرى .. أعتقد أن أسبوعًا سيكون وقتًا معقولاً بالنسبة لما حدث لعضلة القلب .. لكن الموت لو حدث لن يخرج عن الثمانية وأربعين ساعة الأولى .. ما زالت أمامى فرصة لا بأس بها للهلاك »

تمنى لى السلامة ، ثم غادر المكان ، وغرقت فى خواطرى ..

نسيت أن أطلب منه كتابًا .. لكن لا بأس .. ربما ساعدنى النوم على استرداد قواى ..

* * *

الليل وعواء الكلاب التى هى أقرب إلى الذئاب ..

الطرقات الخالية .. صوت محرك سيارة يمزق السكون من آن لآخر .. شوارع المدينة النائمة .. المدينة التى نسيت الحذر وتركت أبوابها مفتوحة للمتسللين والمقتحمين ..

هذا هو بيتى .. هل عرفتموه ؟

لا شىء سوى ضوء المصابيح الخافت ، يلقى بضوء رهيب على مدخل البناية ، وكل النوافذ مصمتة مسربلة بالسواد ، ما عدا نافذة واحدة مضاءة فى طابق علوى ..

شخص واحد يظل ساهرًا حتى الثالثة بعد منتصف الليل .. لماذا ؟ لأنه وطواط آدمى لا يعرف النوم إلا حين تتوسط الشمس السماء ، واسم هذا الوطواط الآدمى (عزت) ..

صوت خطوات على الأسفلت ..

خطوات وئيدة راسخة لا تهاب الليل ولا الوحدة ..



يمشى بتؤدة .. يقف جوار عمود من أعمدة الإضاءة .. يتصلب .. يلقى نظرة عابرة لأعلى .. إلى النافذة المضاءة ..

لولا أننا لا نرى خفيرًا للدرك يجوب الشارع مرددًا (هاه ! من هناك ؟) كما كانوا يفعلون فى الماضى ؛ لقلت إن صاحب هذه الخطوات هو خفير الدرك .. هو وحده يمشى بهذا الاطمئنان وهذه الثقة ..

الآن نراه .. الضوء يرسم له على الأرض ظلاً فارعًا يفوق الخمسة أمتار .. إنه يرتدى معطفًا طويلاً يوشك أن يكنس أرض الشارع .. وجهه مسربل فى كوفية تجعلك لا ترى شيئًا منه على الإطلاق ، وعلى عينيه منظار أسود سميك .. منظار أسود فى هذا الليل البهيم ؟

يمشى بتؤدة .. يقف جوار عمود من أعمدة الإضاءة .. يتصلب .. يلقى نظرة عابرة لأعلى .. إلى النافذة المضاءة ..

ثم يواصل خطواته البطيئة ..

لو أن أحدًا راقب الشارع لمدة ساعة ، لأدرك أن هذا الرجل الغامض قد مرّ وألقى النظرة ذاتها سبع مرات .. سبع مرات بالضبط ..

هذا هو اليوم الثالث الذى يقوم فيه بالشىء ذاته ..

من هو ؟ ماذا يريد ؟ ماذا يفعل ؟

كلها أسئلة لا نملك لها جوابًا فى الوقت الحالى ..

* * *

فى الصباح كانوا لا يعرفون مكانى فى المستشفى الذى أعمل به .. لم أعلن قط أننى مريض ، ولم يخبر (رأفت) أحدًا بالأمر ..

وهكذا دارت عجلة العمل ، وافترض الجميع أننى تغيبت لسبب ما من أسبابى العديدة ، غير عالمين أننى هناك على بعد خطوات فى العناية المركزة ، أوصى زملائى مختصى أمراض القلب بكتمان السرّ ..

كانت أسبابى محددة وواضحة :

١ ـ لا أريد شفقة من أى نوع .

٢ ـ لا أريد لومًا من طراز (أنت المسئول عما حدث لك) .

٣ ـ لا أريد ثرثرة ، ومزاحًا من طراز (يجب أن نزوجك حالاً .. لو كنت متزوجًا لما حدث هذا لك) .

٤ ـ لا أريد علب شيكولاتة ! لا أدرى علاقة الشيكولاتة بالمرض عمومًا ، لكن قانون الشيكولاتة للمرضى صار قانونًا أبديًا له قوة نواميس الكون ، كأن من يحضر لزيارة المريض حاملاً علبة (جاتوه) هو إنسان هالك ، ينتظر أن تحرقه صاعقة من السماء .

هكذا ـ فى عزلتى الاختيارية هذه ـ لم أعرف أن د. (حمزة) جاء مكتبى فلم يجدنى ، وتطوع أولاد الحلال بإعطائه عنوان بيتى ..

لم أدر أنه كان متحمسًا إلى حدّ أنه توجه إلى البيت فورًا ، وقرع الجرس مرارًا ، ثم أخرج قصاصة ورق خطّ عليها بقلمه الحبر الأسود الكلمات التالية :

ـ « أرجو الاتصال بى فورًا .. »

الأمور قد بلغت مبلغًا خطيرًا ..

لا تفتح الباب أبدًا بعد منتصف الليل ..

وانحنى ليدسّ القصاصة تحت الباب ..

وكان مصير هذه القصاصة أن تنتظر أسبوعًا كاملاً ، حتى أجدها وكان أوان الحذر قد فات ..

لا عجب .. إن أشياء وهفوات بسيطة كهذه قد غيرت تواريخ دول بأكملها ، فماذا عن حياتى أنا ؟

* * *

وما كان لى أن أعرف ما حدث فى الليلة التالية ..

يبدو أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل ؛ حين سمع (عزت) قرعات على بابه .. كان ساهرًا فى قاعة النحت ـ كما يسميها ـ عاكفًا على ترطيب كرة من الصلصال لفها بالخيش .. لا بد أن فكرة تمثال عجيب آخر من تماثيله السخيفة كانت تتلاعب فى ذهنه لحظتها ..

عندما سمع القرعات ..

جفف يده بمنشفة متسخة ، وخرج إلى الصالة ..

واحد فقط اعتاد أن يدق بابه فى وقت كهذا وهذا الواحد فى المستشفى الآن يحاول ألا يموت ..

إذن من ؟

دنا من الباب ، وبحذر تساءل :

ـ « من ؟ »

لا إجابة ..

رفع صوته أكثر وصاح :

ـ « من ؟ »

جاءه الصوت الهادئ الرصين ، يقول :

ـ « افتح يا سيدى ولا تخف .. إن الأمر شديد الأهمية .. »

بحذر مد (عزت) يده ، وأزاح المزلاج ، ومن وراء سلسلة الأمان تفحص طارق الباب فى ضوء السلم الخافت ..

للصدق نقول إنه لم ير وجهه على الإطلاق .. كان مغلفًا بالظلال القادمة من أعلى ، وازداد الأمر سوءًا بكوفية أحكمت إخفاء الرأس وجانبيه ..

ـ « ماذا تريد ؟ قل ! »

ـ « لن أتكلم هنا .. افتح الباب أولاً .. »

هذه هى الحيلة لكنها ساذجة تمامًا هذه المرة ..
أنت لا تفتح بابك للغرباء بعد منتصف الليل لمجرد أنهم مصرون على هذا ، وكان الغريب ولله الحمد مريبًا بما يكفى ، بحيث لا يفتح له الباب إلا أحمق أو كفيف أو كلاهما ..

ـ « أنا لن أفتح الباب .. فتكلم أو انصرف ! »

قال الغريب بصوت واهن بعض الشىء :

ـ « أنا من طرف (سحر) .. إنها فى حالة خطيرة .. ربما لا تعيش حتى الصباح ! »

ودقت أجراس الخطر فى ذاكرة (عزت) ..

(سحر) فى خطر ! (سحر) الهشة الرقيقة كالملائكة ، ربما تلفظ أنفاسها الأخيرة .. يا للكارثة !
ثم تذكر شيئًا ، فصاح :

ـ « لحظة ! (سحر) من ؟ »

ـ « (سحر عبد السلام الهمشرى) .. مستحيل أن أكون قد أخطأت العنوان »

هذه المرة عرف (عزت) أن (سحر) هى (سحر) حقًا ..

لا أحد يعرف شيئًا عن (سحر) وقليلون يعرفون أن (عزت) كان متزوجًا قبل أن يمرض .. لم ينجب لكن حياته كانت من الحيوات الجديرة بتسميتها سعيدة .. ثم جاء المرض ومعه استحالت حياته وحياتها إلى جحيم .. كانت تخافه بشدة ، وترقب فى هلع تحوله إلى شبح نحيل أسمر لا يعرف أحد كنه مرضه ..(*)

وفى النهاية جاء التشخيص الصائب : متلازمة (أديسون) الناجمة عن درن دمر الغدة الفوق كلوية .. درن .. سل .. لم تستطع (سحر) أن تتحمل فكرة أن زوجها مسلول ، والأسوأ أن علاجه من السل لن يحل مشكلة ضموره المتزايد .. طلبت الطلاق ، ولم يستطع

(*) لو كنت قد قرأت (آكل البشر) ـ الكتيب الرابع ـ فأنت تريح عن كاهلى حملاً ثقيلاً !

أن يلومها .. هو نفسه تمنى لو كان لديه حلّ كالطلاق يخلّصه من صحبة نفسه ..

لقد تلاشت (سحر) تمامًا من عالمه ، ولم يعد يعرف شيئًا عنها هو الذى لا يذكر أين يسكن أخوه الآن : (دمياط) أم (المنصورة) ؟ لكنه ظلّ يحمل لها ذكرى الفتاة الأولى والأخيرة التى أحبّها ..

* * *

إن من يذكر اسم (سحر) لا يمكن إلا أن يكون يعرفها حقًا ..

بيد متوترة راجفة فتح سلسلة الأمان ، وسمح للزائر بدخول الشقة .. لماذا يتراقص الضوء الكهربى ؟ لا بد أن هناك عيبًا فى المنصهرات ..

اعترف لنفسه أنه لم يحبّ كثيرًا رائحة هذا الزائر ..

لم يحب هذا الجو القاتم المهيب الذى بعثه فى المكان ..

لم يحبّ فكرة أنه لم ير وجهه بعد ..

لم يحبّ ـ على الأخص ـ صوت قطرات الماء التى تسيل منه على الأرض محدثة صوتًا : بليك .. بليك !

وقال لنفسه : هل أمطرت ؟ غريب أننى لم أشعر بهذا .. إن الرجل مبتل كفراش رضيع نام من دون كافولة ..

وقف الزائر هنيهة كأنما ينسم الهواء فى الشقة ، فبادره (عزت) :

ـ « تكلّمْ .. ماذا أصابها ؟ ومن أنت أصلاً ؟ »

ـ « لنقل إننى .. إننى صديق .. »

ـ « ومن أين جئت ؟ »

ـ « إننى أقيم فى (أسكتلندا) .. (أبردين) .. ولسوف أعود إلى هناك بعد ما تنتهى مهمتى .. »

بدت الدهشة على وجه (عزت) .. (أسكتلندا) ؟ لا يبدو أن الرجل آت من هناك .. مظهره لا يوحى إلا بالمجىء من قبر ..

ـ « أنت جئت من (أسكتلندا) لتخبرنى بـ ... ؟ »

- « طريق طويل .. طويل ... »

وتنهد الرجل بينما الضوء الكهربى يتراقص فى جنون ، وأردف :

- « طويل .. طويل .. آلاف الأميال مشيتها وما زال أمامى آلاف الأميال أمشيها .. »

ثم هزّ رأسه فى شرود كأن هذا كله غير مهم ..

ودون كلمات أخرى توغل فى الشقة أكثر ...

* * *

وهرع (عزت) يلحق به ، وقد تردد فى ذهنه :

هذا الرجل غريب الأطوار وقح مقتحم .. لكنه صادق لاشك فى هذا ..

والغريب أن (عزت) كان يمرّ بتجربة شبيهة بما وضعنى فيه فى لقائنا الأول ، حين كان كتلة من الغموض المنذر بالخطر ، وقبل أن أدرك أنه (غلبان) مثلى أو أكثر ..

أسرع يعترض طريق الرجل ، وهتف فى حرارة :

- « قل لى ما أصاب (سحر) ! »

- « أنت ما زلت تحبها ! »

- « هذا ليس من شأنك .. قل لى ماذا أصابها ؟ »

قال الرجل فى تؤدة وهو يتفحص تمثالاً لامرأة :

- « سرطان .. المرحلة الأخيرة منه .. هل هذا التمثال للبيع ؟ »

صاح (عزت) فى جنون ، وقد بدأ يرتجف لأنه لايتحمل الانفعال :

- « دعك من هذا ، وقل لى : أين هى ؟ »

من جديد تساءل الرجل :

- « ردّ على سؤالى ! »

عبث الرجل فى جيبه ، وبحث عن شىء ما ، ثم خرجت يده بشىء مستدير براق أصفر ، وضعه على المنضدة جوار التمثال ، وغمغم :

- « ذهب .. أنا دومًا أدفع بالذهب .. إنه صالح لكل زمان ومكان ! »

صاح (عزت) وهو يمسك بمعطف الرجل :

ـ « أنت مجنون أو تتحامق ! سألتك : أين هى ؟ خذنى إليها حالاً .. ألم تأت لهذا الغرض ؟ »

لم ينظر الزائر للوراء ، وقال فى هدوء :

ـ « نعم .. جئت هاهنا لأنك دعوتنى ! »

* * *

٦ ـ بكامل إرادته الحرّة ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ، لكن لا كأى كلمات .. ترقبوا المسافر الوحيد ..

* * *

كاد (عزت) ـ لنا أن نتوقع هذا ـ يجنّ ، وصاح فى غيظ :

ـ « أنا دعوتك أيها الرجل ؟ متى وكيف ؟ »

غمغم الرجل شيئاً لم يتبينه (عزت) .. ربما قال شيئاً عن (الكلمات) أو لم يقل ، ثم قال بصوت واضح :

ـ « سآخذك إليها ولكن فى الصباح .. أما الآن فأنا متعب وبحاجة إلى النوم ، وأرى أن كرمك قد يسبق عصبيتك .. »

مدّ (عزت) يده والتقط العملة الذهبية فدسها فى جيب معطف الغريب ، وقال محاولاً التماسك :

- « خذ ذهبك فالتمثال ليس للبيع .. ثانيًا : حسبتك قلت شيئًا عن كونها لن تعيش حتى الصباح .. لا أحسب اقتراح النوم مناسبًا جدًا .. »

- « كان هذا السبيل الوحيد لتسمح لى بالدخول ، والآن أقول لك إننى متعب .. لقد قطعت أميالاً وأراضى قاحلة لم يقطعها الجان كى أجيء إليك ، وما زال بوسعنا الانتظار حتى الصباح .. »

وفهم (عزت) الموضوع ..

هذا الرجل الغريب يريد بشكل مجنون أن يبيت هنا الليلة ، والله (تعالى) يعلم السبب .. ولنفس السبب يجرى نوعًا من المساومة : كى ترى (سحر) يجب أن تتركنى حتى الصباح ..

بالطبع لم يكن الأمر مطروحًا للمناقشة ..

وبالطبع لا يسمح المرء للغرباء الغريبين بالمبيت فى داره - وهو وحيد - لمجرد أنهم مصرّون على ذلك ..

كان الإزميل المستخدم فى النحت موضوعًا على منضدة هناك ، لأن (عزت) كان من الفنانين الذين

يضعون الرغيف على المكتب والموسوعة البريطانية فى الحمام .. وفى الضوء المتراقص رآه ..

التقطه ولوّح به فى وجه الرجل ليريه مدى الجروح الخطيرة التى سيحدثها شيء كهذا ، ثم أشار إلى الباب :

- « اخرجْ .. لا أريد معلومات منك .. »

لم يهتز الرجل ، بل غمغم فى هدوء :

- « إن كل ما أطلبه بضع ساعات .. »

- « ولا بضع ثوان .. هيا .. »

من الواضح تمامًا لكل ذى عينين أن (عزت) لن يستعمل سلاحه ، فهو لا يملك غريزة القتال فالقتل ، لكن من الغريب أن الرجل اقتنع ..

وبخطوات ثابتة اتجه للباب ، ففتحه وخرج ..

ووقف (عزت) وحده فى الصالة يرتجف ..

لم يصدق أن الأمر تمّ بهذه البساطة ..

أغلق المزلاج ملهوفًا ، ثم هرع يفتح النافذة ليطمئن على أن الرجل قد رحل فعلاً .. لم يكن الجو دافئًا لكنه على الأقل لم يكن مطيرًا ..

وبالفعل رآه .. رآه فى ضوء مصابيح الشارع الخافتة ، يمشى الهوينى ويداه فى جيبى معطفه مبتعدًا ، ولم ينظر لأعلى قط ..

لقد ثبتت إضاءة الشقة أخيرًا ..

يجب أن يحضر من يفحص هذه المنصهرات غدًا ، فهو لا يفهم فى هذه الأمور ..

* * *

لم أدر هذه التطورات إلا فى الصباح ..

بالتحديد فى الحادية عشرة صباحًا ، حين سمحت له الممرضة بالدخول إلى العناية المركزة ، وكان يحمل لفافة صغيرة أدركت دون جهد أنها علبة شيكولاتة ! وكان منتفخ الجفنين محمر العينين مُرهقًا كحيوان (التابير) .. (لو كان (التابير) يصاب بالإرهاق طبعًا !)

قلت له مداعبًا :

ـ « ما المعجزة التى جعلتك تصحو قبل الواحدة ظهرًا ، وتجد وقتًا كافيًا لشراء هذه الشيكولاتة ؟ »

فى حماقة تساءل :

ـ « كـ .. كيف عرفت أن هذه شيكولاتة ؟ »

ـ « لأننى عبقرى .. هذا هو كل شىء .. »

قال وهو يجلس ويمسح على جبينه :

ـ « كان صديق لى فى (الأتيليه) قد أهداها لى من شهر حين أصبت بالحصبة الألمانية .. أنا أتحدث عن الشيكولاتة .. أظن أنها تصلح لك لأننى أشمئز من الحلوى كما تعلم ! »

ـ « لا بأس .. وما سرّ إرهاقك ؟ »

هنا راح يحكى لى قصة ليلة أمس ، وأنا أطلب منكم الإذن فى سماعها ، لأننى لم أسمعها من قبل .. كلا لن أكررها لأن هذا سيجعلكم تلقون بالكتاب من أقرب نافذة ..

ـ « ولم يعد بعدها ولا فى الصباح ؟ »

ـ « كلا لم يعد .. »

ـ « وهل (سحر) هذه بخير ؟ »

ـ « لن أعرف أبدًا .. إننى لا أملك رقم هاتفها ، وعنوانها قد تغيّر .. »

قلت وأنا أسترخى فى الفراش :

ـ « أعتقد ـ وأنت توافقنى ـ أنها بخير .. كانت هذه قصة أخرى من قصص (السماح للغريب بالدخول ليلاً) ، وهى قصص تنتهى دائمًا على منضدة التشريح الرخامية .. كانت مجرد حيلة مكشوفة »

ـ « الأمر ليس بهذه البساطة : أولاً لا بد من أن يعرف الغريب (سحر الهمشرى) .. وهذا عسير .. ربما لم يعد أحد يعرفها فى الكون سواى ..

ثانيًا كان بوسعه أن يسحقنى فى أية لحظة ، فأنا لست بهذه القوة حتى لو كنت أحمل إزميلاً .. فلماذا لم يفعل ؟ »

* * *

كانت أجراس الخطر تدق فى ذاكرتى ..

غريب من (أسكتلندا) .. مفكرة من (أسكتلندا)

بها كلمات سبع .. أب تتصل روحه بوسيط روحانى لتقول إن لى علاقة بالموضوع .. (عزت) هو الوحيد الذى قرأ الكلمات السبع ..

كل هذا له علاقة ببعضه ، ويمكن تفسير القصة كلها على ضوئه ، لكنى ما زلت أجهل التفاصيل .. المادة اللاصقة التى ستتخلل كل هذه الأجزاء وتجعلها كتلة واحدة متماسكة ..

قلت لـ (عزت) وهو ينصرف :

ـ « نصيحة واحدة يا (عزت) .. لا تدع هذا الرجل يبيت فى دارك أبدًا .. »

ـ « لا أحتاج إلى نصيحة لأفعل هذا ، ولكن ما السبب ؟ »

ـ « لا أدرى .. ثمة شىء فى طريقته تذكرنى بأسلوب مصاصى الدماء .. لا بد من أن تدعوهم الضحية (بكامل إرادتها الحرّة) .. مصاص الدماء لا يدخل بيتًا غير مدعو .. »

بدا عليه الهلع ، واتسعت عيناه :

- « هل تعنى أن هذا الرجل مصـ .. مصاص دماء ؟!

- « نحن لم نصل لهذه الدرجة .. لم أقل هذا ، لكنى - بالغريزة - أشعر أنه لن يؤذيك ما لم تسمح له طواعية بالمبيت فى دارك ! »

وابتسمت فى خبث ، فقد نجحت فى إحالة لياليه إلى جحيم .. طبعًا لم أكن أعطى الأمر كل هذا القدر من الأهمية ، ولم أدر مدى صدق كلماتى .. لو عرفت لانتزعت أقطاب جهاز رسم القلب ، ووثبت من الفراش لألحق به وأكون معه ..

* * *

عندما جاء المساء كان يوم (عزت) يبدأ كعادته ..

استوثق من أن باب الشقة مغلق بالمزلاج ، وأعدّ لنفسه كوبًا من الشاى بالنعناع لينتعش ، وفتح المذياع على موسيقا كلاسيكية هادئة لا يعرف شيئًا عنها لكنها تريحه ..

جاء بكتلة الصلصال اللينة وبدأ العمل .. كانت هناك بعض (السكتشات) تبين التمثال من عدة زوايا ، وكان يرسمها بقلم رصاص على ورق أصفر لتعطى ذلك التأثير الضبابى لمخطوطات (ليوناردو دافنشى) ، والحقيقة التى لم يكن يعلمها أن مخطوطات (دافنشى) كانت تُكتب وتُرسم بالمقلوب ، بحيث لا يمكن قراءتها إلا أمام مرآة !

واصل العمل .. وبدأ وجه الصعيدى العجوز يُولد من عدم ..

نسى مرور الزمن ، فلم يدر أن الساعة قد دنت من الثانية بعد منتصف الليل ، وأن السكون عمَّ الكون بعدما نامت الضوضاء ذاتها من فرط إرهاق ..

وبعد قليل سمع الدقات على الباب فأجفل ..

العجوز (رفعت إسماعيل) على حق .. لقد عاد الزائر من جديد ..

هرع إلى الباب وأصاخ السمع ، ثم بصوت مرتعش تساءل :



ـ « من ؟ »

ـ « أنا .. (رفعت) طبعًا يا أحمق ! »

فتح الباب مندهشًا ليجدنى واقفًا هناك فى ضوء السلم الخافت ، ارتجف وأوشك على السقوط من فرط الوهن ..

ـ « يالك من أحمق ! كيف تركت المستشفى ؟ »

قلت وأنا أدخل فى لهفة لاهثًا :

ـ « أردت أن .. أكون .. معك لحظة عودة الغريب .. »

ساعدنى على الجلوس ، وربّت على كتفى :

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لم أرد أن تتصرف بحماقة .. هذا كل شىء .. والآن هلاّ جلبت لى بعض الماء ؟ لاتخف .. لن أموت كما يفعل الجميع حين يطلبون كوب ماء .. »

هرع إلى المطبخ ، وعاد لى بالكوب المتسخ الملىء بالبقع والدهون ، فشربت دون تعليق ، ثم سألته :

ـ « ألم يأت بعد ؟ »

فتح الباب مندهشًا ليجدنى واقفًا هناك فى ضوء السلم الخافت ، ارتجف وأوشك على السقوط من فرط الوهن ..

- « نعم .. حسبتك هو .. »

راحت عيناى تجوبان الشقة فى اهتمام .. ثم توقفتا عند شىء على الأرض ، وقلت فى قلق :

- « هل جرحت نفسك أم أصبت بالبواسير أخيرًا ؟ »

- « لا هذا ولا ذاك .. »

ونظر إلى الأرض المتسخة التى لم تحظ بغسيل جيد منذ أربعة أشهر ، ورأى ما أعنيه .. قطرات الدم الجاف المنتثرة على البلاط ، والتى تدور فى خط منتظم فى الصالة ..

هتف مذعورًا وعيناه تروحان هنا وهناك :

- « لا .. لابد أنه الغريب .. لم ألحظ هذا ولم ألق أية نظرة على البلاط منذ رحل .. لقد كان ينزف ! حقًا كان ينزف ! وأنا الذى سمعت صوت قطرات ماء تتساقط منه إلى الأرض .. قلت لنفسى : إنها تمطر بالخارج .. »

ابتسمت فى مرارة ، وقلت :

- « هل وجدت أثرًا للأمطار حين فتحت النافذة بعدها ؟ »

- « لا طبعًا .. »

تحسست صدرى بكفى عدة مرات ، وتنفست بشىء من العسر ، فصاح (عزت) وهو يرتجف :

- « كانت حماقة منك أن تترك المستشفى الآن .. هل أنت بخير ؟ »

- « أعتقد ذلك .. إن جلطات القلب لا تمرّ بهذه السهولة .. »

ثم إننى نهضت ، ورحت أجوب الصالة عدة مرات ..

أخيرًا توقفت أمام تمثال المرأة الذى راق للغريب أمس ، وتفحصته ثم قلت فى تؤدة وصدرى يعلو ويهبط من الإجهاد :

- « هذا هو التمثال الذى راق له ؟ إنه لا يساوى جنيهًا ذهبيًا بالتأكيد .. »

ضحك (عزت) فى مرح ، وقال :

- « ما ذنبى إذا كان المتسللون ليلاً يتذوقون فىَّ أكثر منكم جميعًا ؟ »

ثم سألنى وهو يواصل عمليـة تشكيل الصلصال بعد ما دخلنا غرفته :

- « هل ستقضى الليلة هنا ؟ »

- « أعتقد .. إن كلينا بحاجة لحماية الآخر : واحد معرض لنوبة قلبية جديدة ، وواحد معرض لهجمة غير مفهومة من غريب مريب .. »

ثم توقفت ومددت يدى إلى الأرض ، والتقطت شيئًا أثار اهتمامى .. كان قطعة من العملة الصفراء الذهبية ، وهتفت :

- « هذه لا تخصك حتمًا .. لا بد أنها كانت تخص الغريب .. »

نظر لها وتفحصها فى كفه ، ثم غمغم :

- « لا أدرى كيف .. لقد دسستها فى جيبه أمس .. »

- « إما أن جيبه مثقوب ، وإما أن الرجل ألقاها على الأرض كى تجدها .. يبدو أن احتفاظك بها مهم بالنسبة له .. »

- « (بكامل إرادتى الحرة) كالعادة ؟ »

- « لا أدرى .. »

وطوحت بالعملة بعيدًا كأنما أتخلص من عقرب وجدته فى ياقة قميصى .. وقلت :

- « لو كان ذكيًا بما يكفى ، فلن يلجأ إلى حيلة (سحر عبد السلام) هذه ثانية .. المفترض أنك سألت عنها وعرفت أنها بخير .. »

وابتسمت فى خبث ، وقلت بلهجة موحية :

- « غريب أن تكون امرأة فى حياة (عزت) .. الذئب الوحيد .. »

لكن (عزت) لم يكن يصغى إلىّ ..

كان يسترجع المحادثة بيننا ويقارنها بما قاله فى المستشفى ، وفطن فجأة - مع قشعريرة تزحف عبر ظهره - إلى أن هناك خطأ ما :

أولاً : هو لم يحك لى فى المستشفى قصة محاولة شراء التمثال ، وقطعة الذهب .. فكيف عرفتها ؟

ثانيًا : هو لم يذكر لى الاسم الثلاثى لزوجته السابقة .. ذكر أن اسمها (سحر الهمشرى) فمن أين جئت أنا بـ (عبد السلام) ؟

النتيجة منطقية وواضحة وإن كان يأبى تصديقها :

إن الواقف أمامه الآن ليس (رفعت) !

* * *

٧ - جلسة منفردة ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمّدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ، لكن لا كأى كلمات .. ترقبوا المسافر الوحيد ، يأتى بأى وجه كان ..

* * *

كان ردّ فعل (عزت) مذهلاً ، سريعًا إلى حدّ لا يصدّق ..

دفعنى بيده فأسقطنى ، ثم هرع إلى الباب ففتحه ، وراح يثب درجات السلم أربعًا أربعًا ، حتى وجد نفسه فى الشارع المظلم الذى لم تزل الإضاءة الخافتة رهبته ..

كان الانفعال يوشك على سحقه ، وكما ألجأ أنا إلى (النتروجلسرين) ، لجأ هو إلى لفافة ورقية ملأى بالملح وراح (يسفّ) منها ما استطاع ..

كان بثياب الخروج ـ من حسن حظه ـ لأنه كان ينتظر قدوم الغريب ، وقد مشى نصف ساعة حتى وجد سيارة أجرة ، قبل سائقها أن يقله إلى المستشفى ..

اقتحم العناية المركزة برغم احتجاج الممرضات والعامل النوبتجى ، ليجد ماكان يتوقعه بالفعل :

كنت أنا فى الفراش أطالع كتابًا ، وقد بدت علىّ الدهشة لحضوره فى ساعة كهذه !

* * *

حكى لى القصة العجيبة ، فكنت على استعداد للموافقة .. لقد حدث شىء مماثل فى (جامايكا) حين اختطفتْ زوجة صديقى ثم اتضح أنه ليس أنا !

وكيف أندهش أو أنكر وقد قابلت نفسى بعد هذه القصة ، وتشاجرنا وأوشكنا على قتل أحدنا الآخر ؟

لقد رأيت مسوخًا كثيرة تتخذ صورتى ، وأعترف أنها كانت أكثر إرعابًا من المعتاد ..

قلت لـ (عزت) وأنا أضع عويناتى على الكومود مع الكتاب :

ـ « لقد صار من المؤكد أن الأمر خارق للطبيعة ، وأن هذا الـ .. الشىء مصرّ على قضاء ليلة كاملة معك .. ولو كنت مكانك لتواريت فى أعماق الأرض .. »

قال بلهجة كالبكاء :

ـ « سيجدنى ! إن من يستطيع التحوّر إلى صورتك لقادر على أن يجدنى فى أى مكان .. إن من يعرف اسم (سحر) الثلاثى لقادر على أى شىء آخر .. »

ـ « ما زلنا نملك نقطة قوية هنا .. هذا الرجل بحاجة ماسة إلى أن تدعوه للمبيت ، لهذا يلجأ إلى الخداع .. لهذا هو ضعيف .. إن من يخدع الآخرين هو ـ ببساطة ـ شخص يملك نقطة ضعف .. »

ومن جديد نصحته بالبحث عن مكان يبيت فيه ، وألا يسمح لإنسان أيًا كان بالمبيت معه حتى لو كان زوج خالته .

وانصرف (عزت) ..

وجلست أصغى لصوت جهاز التنفس الصناعى

القادم من الفراش المجاور لى ، وجعلنى صوته الرتيب أدخل فى تلك المنطقة ما بين النوم واليقظة التى يسميها الأجانب (منطقة الشفق) ..

ما سر هذه الكلمات السبع ؟ من هو هذا الزائر الغامض الذى لم يقل لى د . (حمزة) شيئًا عنه ؟ ماذا يريد ؟ ..

تبًا ! لو لم أكن مكبلاً هكذا لاستطعت التصرّف ..

ناديت الممرضة بصوت واهن ، وسألتها عن ثيابى .. إن ثيابى هنا لأن أحدًا لم يعد بها لدارى ، أما الآن فأنا أرتدى منامة على اللحم قد فتح صدرها للأبد لتثبيت الأقطاب ..

جاءتنى بالبذلة الكحلية العزيزة التى تجعلنى فاتنًا ، فبحثت حتى وجدت بطاقة وسيطنا الروحانى إياه ..

ـ « هلا تكرمت بالاتصال به وإبلاغه أننى هنا ؟ »

هزت رأسها وانصرفت لتتصل من الهاتف الموجود فى غرفة المراقبة ، وقلت لنفسى : لا بأس .. هكذا لو أراد الرجل أن يلتقى بشىء فلن تكون هناك مشكلة ..

* * *

فى الصباح جاء د . (حمزة) ، وعانى كثيرًا حتى وجدنى ..

جلس جوار الفراش يلهث ، ونزع الكاسكيت يجفف العرق الغزير الذى انهمر على جبينه ، ثم قال :

ـ « خيبك الله ! لقد أتعبتنى بحق فى البحث عنك ، ولم أدر أنك (مقطوع من شجرة) .. »

قلت له فى حنق :

ـ « سأحاول فى المرة القادمة أن أتصل بكل معارفى لأخبرهم أين قررت أن أموت .. هل استجدّ شىء ؟ »

اتسعت عيناه ، ودنا منى أكثر ، وقال :

ـ « صاحبك هنا .. »

ـ « (صاحبى) ؟ من هو صاحبى »

ابتسم ، وأعاد المنديل المحلاوى إلى جيبه ، وقال :

ـ « لقد اتصلت بى الروح .. قالت كلمات غامضة كالعادة ، لكنها متأكدة من أن الخطر هنا ودان جدًا .. حذرت (رفعت إسماعيل) وكل من له علاقة بالكلمات بأن يأخذ حيطته ، ولا يفتح الباب أبدًا بعد منتصف الليل (حتى لا يعمّ البلاء) .. »

ـ « وكيف نمنع البلاء ذاته ؟ »

قال وهو يمط شفته السفلى :

ـ « لا أدرى .. ويبدو أن الراهب لا يدرى وإلا لصرّح وما اكتفى بالتلميح .. والكلام الملغز .. »

قلت له ضاغطًا على أعصابى :

ـ « ثمة دلائل معينة توحى إلىّ بأنك لست كاذبًا ، والله (تعالى) وحده يعلم كيف تعرف ما تعرفه ، لكن أعتقد أننى أعرف الكلمات السبع .. ولم أكن أنا من لفظها بل صديق لى .. وحدث هذا بطريق الخطأ .. هذا الصديق يواجه زيارات من غريب لحوح يريد قضاء الليل معه .. لا أدرى السبب لكن أحسب أن له علاقة بهذه القصة .. »

بدت عليه الدهشة .. ابتلع ريقه ، وقال :

ـ « ليكن .. سأحاول أن أعرف المزيد .. »

* * *

فى شقته بـ (الجيزة) جلس د. (حمزة) ، وأعدّ شريطًا لجهاز التسجيل ثم بدأ إعدادات الـ (Seance) أو (جلسة تحضير الأرواح) ، ولا تسلنى عن سبب تفضيله للاسم الغربى لها ، فهذا يعطيها طابعًا من العلم الجادّ ..

كانَ قد اعتاد أن يستخدم جهاز التسجيل من أجل الجلسات المنفردة ، فهو لم يكن قادرًا على استعادة حرف واحد بعدما يفيق من السنة .. ولهذا أيضًا كان هناك جهاز تسجيل ثان ، مهمته أن يذيع بعض العبارات والتعليمات التى لا يستطيع (حمزة) النطق بها وهو غائب عن الوجود ..

كان يعيش وحيدًا بعد وفاة زوجته وزواج أولاده ، وكانت تجاربه لعبًا بالنار بالنسبة لإنسان وحيد .. لكنه ـ أو هذا ما كان يظنه ـ يعرف جيدًا ما الذى يفعله ..

بدأ بإظلام الغرفة ، فلم يعد هناك سوى ضوء خافت قادم من الصالة ، وأشعل بعض البخور .. يقال

إن البخور محبب للأرواح ، وهو لم يختبر هذه القاعدة قط ، لكنه اعتادها على كل حال وما عاد مستعدًا للتجريب بعد كل هذا العمر ..

وضع المنديل على رأسه ، حتى يخفى وجهه وعينيه ، ثم راح يتمتم ببعض العبارات بشفتين مكهربتين .. ثم بدأ النداء :

- « الراهب (جستنيان) .. هل تسمعنى ؟

لا صوت سوى دوران بكرتى الشريط فى جهازى التسجيل .. الجهاز الثانى سيظل يدور نحو نصف ساعة ، قبل أن يخرج من سماعته صوت (حمزة) يأمر الروح بالانصراف ، ويأمر (حمزة) بأن يفيق ، ولو حدث خلل ما ، فمن المحتمل أن يظل الرجل فى غيبوبة دائمة .. إن الكهرباء تنقطع فى (الجيزة) كأى مكان آخر ، لكن من قال إن مهنة تحضير الأرواح خالية من الخطر ؟

وقد افترض (حمزة) أن فترة نصف ساعة تكون كافية جدًا للاتصال .. إن أهم الأشياء تقال فى بداية اللقاء ، أما الباقى فتفاهات ..

- الراهب (جستنيان) .. هل تسمعنى ؟

* * *

كان (حمزة) يشبه نفسه بمكثف جهاز الراديو .. إن الراديو يصغى إلى الفضاء الأثيرى .. يفتش وسط زحام الموجات الكهرومغناطيسية حتى يجد موجة معينة ؛ ويضخمها ويجعلها واضحة ..

هكذا كان (حمزة) يذوب فى عالم لا اسم له حتى الآن ، بحثًا عن واحد معيَن ، ويجده بكثير من العسر ويتكلم بلسانه ..

الآن هو يسمع صوت (جستنيان) الخافت ، وقد عثر عليه أخيرًا .

* * *

وفى ظلام الغرفة انبعث صوت غريب من وراء المنديل ..

صوت عجوز مرهق يختلف كثيرًا عن صوت (حمزة) الحادّ العصبىّ ..

ما هى هذه اللغة ؟

إنها الإنجليزية .. لكنها إنجليزية عتيقة عجيبة ملأى بمفردات شاخت أو ماتت .. يمكننا فهم ما يقول بشىء من العسر ، ويمكننا أن نترجمه :

ـ « إنها آخر مرة أنصحكم فيها ، فأنا رجل مات لا يقدر الوباء على إيذائى .. لكنى أكره أن أبصر الهول من جديد ..

إنه هنا بينكم .. إن له ألف وجه ووجه .. لكنه يمشى الهوينى فى الدروب يسأل الناس ليلة .. ليلة يدفع ثمنها ذهبًا .. »

عاد صوت (حمزة) يتلوّن ليعود لطبيعته ، وهمس :

ـ « تساءلنا أن نعمل بنصيحتك ، ونسيت أن تذكرها .. »

ومن جديد دوّى الصوت العجوز بإنجليزيته المنهكة :

ـ « لأننا لا نطلع على الغيب ، ولا نرى من وراء الحُجُب .. أرواح الفانين واهنة كالفانين ، كما أن أمواه بحر الشمال مالحة كبحر الشمال .. لكنى لك أقول أيها الفانى : إن من بدأ اللعنة يقدر على إنهائها ، ومن فتح بوابة الشيطان يقدر على غلقها ، ومن لفظ الكلمات بصوت عال هو أقدر على منع شرّها .. »

كان الصمت يسود الغرفة المظلمة ..

رأس د . (حمزة) منحن كمن ينام جالسًا ، وقد داراه المنديل .. ووعيه كان هناك ، فى عالم لا اسم له ..

فقط كان يتكلم بصوت عال ، وينفعل ويغضب .. ولكن .....

هل أنا أهذى أم أن هناك من يقف على باب الحجرة ؟!

بينما يواصل الصوت الواهن الكلام :

ـ « إن الشر هنا .. قد خرج للظفر بكم .. إنه

بينكم .. على عتبات دياركم ، وفى مخازن غلالكم ، ووراء كل شجرة فى غاباتكم .. الشرّ الذى زرعه سحرة (السلت) كى يفتكوا بسكان الشمال ، ما زال حيًا .. يجب أن تدمروا منبع الكلمات السبع .. يجب أن يبتلع قائلها لسانه .. »

الآن يدنو ذلك الظلّ من الرجل الغافل ..

إنه الآن واقف عند رأسه المغطى بالمنديل ..

أنا لا أتبين وجهه فى هذه الإضاءة الخافتة .. لكنه يحمل شيئًا فى يده .. يحمل منجلاً عملاقًا كالذى يحمله الموت فى الرسوم القديمة ..

ها هو ذا يرفعه فى الهواء ..

يقول الصوت الواهن من وراء المنديل :

ـ « إنه قريب منك جدًا أيها الفانى .. أقرب من حبل الوريد .. أشعر به .. أشم رائحته .. أشعر أنك ستلحق بى حالاً فى عالمنا هذا .. إننى ..... »

وفى الثانية التالية .. توقف د . (حمزة) عن الكلام ..

من العسير على المرء أن يتكلم دون رأس ..

ألا توافقوننى على هذا ؟!

* * *

٨ - هارب !

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ، لكن لا كأى كلمات .. ترقبوا المسافر الوحيد .. يأتى بأى وجه كان .. يغترف من بئر الأكاذيب ..

* * *

عند منتصف الليل :

راحت الممرضة تخفض الأضواء فى العناية المركزة لتساعد المرضى البؤساء على النوم ، وهو إجراء أكرهه بشدة ؛ لأنه يمنعنى من القراءة حتى الثالثة بعد منتصف الليل كعادتى ..

اليوم سألت د . (سليم) معالجى عن الوقت المناسب للرحيل ، فمط شفته السفلى مفكرًا وقال :

- « يمكنك التفكير بعد ثلاثة أيام .. وعندها سنقول لك إن الوقت المناسب لم يحن بعد ! »

وتركنى أحاول فهم هذه العبارة البيزنطية بقية اليوم ، وقد أدركت أن علىّ الاختيار بين الموت مللاً أو الموت بنوبة قلبية ..

جلست فى الظلام أرمق السقف ، وأصغى لصوت أجهزة التنفس الصناعى لدى أكثر من مريض عجز عن التنفس من حولى .. ما أضعف الإنسان وما أشدّ غروره !

كانت الممرضة تروح وتجىء بين الأسرّة كملاك أبيض مغلّف بالظلام ، ورأيتها تدنو من المريض الراقد بجوارى ، وهو موجه متقاعد فى وزارة التربية والتعليم يُدعى (الدمنهورى) ، ومصاب بجلطة واسعة الانتشار فى قلبه تكفى لجعله لا يصحو إلا ليصرخ ألمًا ، ثم يغيب عن الوعى بسبب اختلال الضربات .. وكنت أراه من خلال فرجة بين ستارين يفصلان فراشى عن فراشه ..

رأيتها تعبث بالجهاز المنظم للمحلول لتتحكم فى سرعة تدفق السائل إلى عروقه ، ثم ابتعدت وسمعتها تقول لزميلتها :

- « يمكنك النوم قليلاً يا (هدى) .. أنا أراقب كل شىء .. »

لكن عينى رأت شيئًا غريبًا .. تناولت العوينات أثبتها على أنفى ، وأرمق السائل المتدفق من الزجاجة فى عروق جارى .. هذا جنون !

إن الزجاجة ـ بهذا المعدل ـ ستفرغ فى ثانيتين ، والمفترض أن يكون السريان بطيئًا جدًّا .. ربما خمس عشرة نقطة فى الدقيقة .. هناك استهتار .. لكن هذه الفتاة قد فاقت الحدّ ..

صحت فى رعب :

- « يا آنسة ! إن هذا المحلول ليس ... »

ثم وجدت ألاّ داعى لإضاعة الوقت ، فوثبت من فراشى بالأقطاب على صدرى ، وهرعت إلى فراش جارى كى أبطئ تدفق المحلول قليلاً .. وكان من جراء هذا أن الدوار غلبنى .. سقطت على الأرض جوار الفراش ألهث وللحظة حلّقتْ سحابة سوداء أمام عينىّ ..

لحسن الحظ أن السحابة تلاشت سريعًا ، لأننى رأيت من خلال فرجة ستائر فراشى .. رأيت الفتاة ـ التى ليست (هدى) ـ تقف هناك وتتلفت حولها فى عصبية .. وفى يدها لمحت مبضعًا يتوهج فى الضوء الخافت .. مبضعًا .. سكينًا .. لا أدرى بالضبط ، لكنها لم تكن تحمله بغرض تقشير البرتقال لى ..

انتزعت الأقطاب من على صدرى ، ونظرت إلى الأرض ..

قطرات الدم هذه المتساقطة حيث كانت الممرضة تقف .. ترسم بوضوح مسارها منذ عالجتْ المحلول ثم ابتعدت لتكلم صديقتها ..

أذكر شيئًا ما عن شخص زار (عزت) ، وترك قطرات دم على الأرض .. إن عقلى يعمل بسرعة جهنمية .. هذه ليست ممرضة إذن !

هرعت أزحف على أربع كـ (التابير) ـ لو كان (التابير) يزحف على أربع ـ ما بين الأسرة ، وقد أدركت بشكل ما أن الأمر أكبر من مجرد ممرضة حمقاء .. أكبر من الصراخ وطلب الغوث ..



رأيت الفتاة - التى ليست (هدى) - تقف هناك وتتلفت حولها فى عصبية .. وفى يدها لمحت مبضعًا يتوهج فى الضوء الخافت ..

أزحف ما بين الأسرَّة نحو الباب ..

أجتازه .. وأخرج إلى الممر خافت الإضاءة ..

أنهض على قدمىَّ ، وأنا أرتجف انفعالاً ..

(لهذا لم أتبين وجهها قط)

وأواصل المشى الحثيث .. وأنا أدرك أننى - إن لم أسترح الآن - أخط بوضوح حروف اسمى فى النعى الذى سينشر فى جريدة (الأهرام) بعد يومين .. هل أبحث عن

(ولهذا خفَّضتْ الإضاءة بمجرد مجيئها !)

واحد من رجال الأمن أو العامل النوبتجى كى ؟

لا .. لا وقت لهذا ..

أمشى الآن فى حديقة المستشفى المظلمة مبلبل الأفكار ، حافى القدمين ، لا تسترنى سوى منامة مفتوحة الصدر .. ليتنى لم أكن أصلع .. فلربما ساعد شعر الرأس قليلاً على اتقاء البرد ....

خرجت إلى الشارع شبه الخالى لحسن الحظ ..

وتذكرت شيئًا مهمًا .. إن د . (رأفت) صديقى يسكن فى الشارع المجاور .. حمدًا لله ! للمرة الأولى أدرك أن قرارات (رأفت) صائبة تنم عن حكمة لا شك فيها ..

* * *

سأعفى القارئ من سرد الموقف .. ولقد انتزعت من (رأفت) وعودًا مغلظة بألا يخبر مخلوقًا أيًا كان بأننى طرقت بابه بعد منتصف الليل حافيًا وبالمنامة ، وطلبت منه ثيابًا ومالاً .. وحذاء ..

كان مذعورًا ، وقد أعطانى ما طلبت متوقعًا أن أطعنه برقبة زجاجة لو لم يفعل .. كان مذعورًا إلى حدّ أنه لم يقترح توصيلى إلى حيث أريد ، ولم يدهشنى هذا أو يضايقنى ..

فقط على السلم عدت أصيح به :

ـ « عدنى يا (رأفت) .. ولا كلمة لأى مخلوق ! »

صاح فى هلع رافعًا يده اليمنى كأنما يؤدى قسم (أبو قراط) :

ـ « أقسم بالله العظيم أننى لن أفتح فمى .. لقد خرستُ ! أنا لا أرى ولا أسمع ولا أتكلم .. سرك فى بئر سحيق .. اطمئن ! »

و (شخط) فى طفله الذى أطلّ بعنقه من الباب .. ثم هرع بدوره يغلق الباب ، ويضع ألف مزلاج ومقعد خلفه ..

لا أدرى لماذا يظن الناس بعقلى الظنون أحيانًا ؟

* * *

توقفت عربة الأجرة أمام العنوان الموضح لبطاقة ، والذى ما زلت أذكره برغم أنها ليست معى ..

(كان حساب عربة الأجرة وقتها يتمّ بالعدّاد ، ولولا هذا لدفعت مبلغًا فلكيًا لا يتسع هذا الكتيب لذكره) ..

د . (حمزة الصاوى) .. أريده بشدة حالاً ..

هذا الرجل يملك الإجابة عن أسئلتى ، أو يملك معرفة من يملك الإجابة عنها .. إنه خيط واه ضعيف لا أثق به كثيرًا ، لكنه الخيط الوحيد ..

شىء ما حاول قتلى فى المستشفى .. شىء لـه ذات الخواص الفيزيائية للشىء الذى يطـارد (عزت) .. فلماذا ؟ وما دورى فى الموضوع ؟ كنت سأفهم وأتقبل لو طورد (عزت) وحده أو قتل ..

ولكن أنا ؟

* * *

بثياب د. (رأفت) الفضفاضة بعض الشىء ؛ رحت أصعد فى الدرج .. وهو درج جدير بوسيط روحانى .. واسع إلى حدٍ مرعب .. عـالٍ مهشم .. إنهـا تلـك البنايات القديمة التى يرتفع سقفها خمسة أمتار عن الأرضيات ، والتـى تـمّ بناؤهـا ببـذخ جديـر بعصـر (الباشوات) ..

عند الطابق الثالث كان هناك سهم يشير إلى شقة .. سهم من خشب متآكل عتيق ، كُتب عليه باللون الأزرق (د . حمزة الصاوى - خبير روحانى) .. كما يحدث فى عيادات الأطباء ..

البـاب الذى يشير إليـه السهم كـان مواربًا .. ومن خلفه ظلام دامـس .. ظلام لم يره بعد كفيف ، ولم يحلم به جنين فى رحم ..

أنا أكره الحماقة التى تجعل أبطال القصص يدخلـون القبو الذى ينام فيه مصاصو الدماء ، وهم يعلمون ذلك..

أكـره الغبـاء الـذى يجعل المـرء يـرى بابًا مواربًا بلا سبب ، بعد منتصف الليل ، ويرغم هذا يدخل ..

أكرهه .. لكن لا حيلة لى .. إن النـداء ثـلاث مـرات لم يُجْدِ ..

لهذا دخلت ..

* * *

وكانت الصالة مظلمة .. ما عدا مصباحًا واهنًا مـن النوع الـذى كـانت المرحومـة أمـى تسميه (لمبـة حرامية) ..

وكـان هنـاك موضـع مفتـوح .. يبدو أنهـا الغرفـة الوحيدة القابلة لدخولها هنا .. البلاط مهشم نخر مـن النوع الذى يصدر صريرًا .

هذه الرائحة !

لا أحبها كثيرًا ، وتذكرنى بالدم المسفوك وإن مزجت برائحة البخور ..

أضأت المصباح الوحيد فى الصالة الذى يمكن أن نسميه مصباحًا ، كى أتبين طريقى ، ثم خطوت إلى الحجرة المفتوحة التى يملؤها البخور ..

كانت مظلمة تمامًا وفى الظلام كنت أسمع الهدير المنتظم لمحرك جهاز تسجيل إذ يدور بلا نهاية بعد انتهاء الشريط(*) ..

تحسست الجدار حتى وجدت مفتاحًا ففتحته ، وعلى الضوء الذى غمر الحجرة أمكننى أن أفهم ما هناك ..

أولاً : كنت مخطئًا بصدد وجود جهاز تسجيل .. هناك اثنان .. وكلاهما مستمر فى الدوران بلا توقف ..

ثانيًا : الجسد الجالس فى مقعد يشبه جسد د . (حمزة) ..

(*) نحن نتحدث عن جهاز تسجيل عتيق من الطراز ذى البكرتين .

ثالثًا : لا أحب أن أزيح المنديل لأرى وجه صاحب الرأس المتدحرج هناك ، لكن لا توجد أجساد كثيرة هنا تؤدى للخطأ ..

رابعًا : قطرات الدمّ التى تتحرك عبر الأرضية متجهة للصالة ، تبدو مألوفة لى .. ليست هذه دماء (حمزة) ولم تتساقط من السلاح الذى قتله ، بل هى أقرب إلى أثر .. أثر القاتل الذى ينزف دمًا طيلة الوقت وبلا سبب مفهوم ..

* * *

تراجعت إلى الوراء وألصقت ظهرى بالحائط ..

ترى هل هو هنا ؟ كل شىء جائز .. وهذا قاتل لا يمزح .. قاتل يطير الرقاب بضربة واحدة ، ولا يبالى بكونك شيخًا أو غافلاً ..

انتظرت قليلاً وأنفاسى تتسارع ..

بعد هنيهة قلت لنفسى : لو كان يريد قتلى فقد أتيحت له الفرصة عشر مرات منذ دخلت الشقة بحماقة بالغة ..

من يدرى ؟ ربما كان فى المستشفى الآن يبحث عنى ..

ماذا أستنتج من هذا الذى أراه ؟

بخبرتى السابقة يمكننى أن أؤكد أن ما حدث هنا كان جلسة تحضير أرواح .. الدكتور (حمزة) أجرى جلسة منفردة ، وقام بتسجيلها على شريط التسجيل ، حين هاجمه القاتل وهو غافل ..

لماذا ؟

لأنه عرف أكثر مما ينبغى ، أو قبل أن يعرف أكثر مما ينبغى ..

نفس الشىء ينطبق علىّ .. لماذا حاولت الممرضة - التى ليست (هدى) - قتلى ؟ لأننى أعرف أكثر مما ينبغى ، أو قبل أن أعرف أكثر مما ينبغى ..

ولهذا معنى مهم آخر :

هذا الشريط يساوى ثقله ذهبًا لو كان عليه شىء من الجلسة التى دارت هنا منذ قليل ..

نظرت حولى ، ثم بحثت فى جيب سروال (رأفت) حتى وجدت منديلاً ..

لففته على يدى واتجهت إلى جهاز التسجيل ، كى أخرج بكرته .. ودسستها فى جيب السترة ، وكذا فعلت بالجهاز الآخر ..

إن هذا الشريط لن يفيد رجال الشرطة ، ولن يستنتجوا منه شيئًا ، ولن يصدقونى لو حكيت لهم .. لهذا هو معى أكثر نفعًا ..

الآن يجب إزالة بصماتى عن .. عن ؟ أعتقد أننى لم ألمس سوى مفتاحى النور .. لا أريد أن يجدوا بصماتى هنا ، خاصة لو كان الفقيد يحتفظ بمفكرة أو ورقة كتب بها اسمى وعنوانى .. ستكون قصتى عن (السلت) والكلمات السبع واهية بعض الشىء وقتها ..

هنا سمعت الصوت ، وخيّل إلىّ أنه كرباج يفرقع فى الهواء ، ثم فطنت إلى أنه صوت جسم حادّ يشق الهواء سريعًا ..

نحو عنقى ..

* * *

٩ - فلنرتب أفكارنا ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرد كلمات ، لكن لا كأية كلمات .. ترقبوا المسافر الوحيد .. يأتى بأى وجه كان .. يغترف من بئر الأكاذيب ، ويرسم من خلفه خيطاً من دماء ..

* * *

مددت يدى سريعًا إلى جهاز التسجيل الثقيل ، وبهذا ضمنت الانحناء وسمعت صوت المنجل إذ يمرّ بجوارى ..

إن من يهاجمون بغتة يضيعون وقتًا ثمينًا جدًا فى الذعر ، ثم تبين وجه مهاجمهم ، وترديد عبارات من طراز (من أنت ؟) و (ماذا تريد ؟) ..

لا وقت لهذا الهراء لأن صحتى لن تسمح لى بأى

اشتباك من أى نوع .. دون مناقشة رفعت الجهاز وأدرته فى الهواء نصف دورة ، ثم هويت به على وجه مهاجمى .. وسمعت الجهاز يتهشم ..

وهرعت إلى الباب .. الصالة خافتة الإضاءة .. الباب الخارجى .. وثبت على درجات السلّم ... كان قلبى قد استنفد طاقته تمامًا ..

بئر السلم .. الرائحة العطنة والقط ...

ظلام دامس .. صمت ..

* * *

لا أدرى كم من الوقت فقدت وعيى هناك ، لكنى أعتقد أن هذا ضلّل مطاردى لأنه لم يجدنى أركض فى مدخل البناية أو الشارع ، حين لحق بى هناك ..

لبثت هناك نصف ساعة غارقًا فى العرق البارد أرتجف ..

إننى فى حال سيئة .. هل أعود إلى العناية المركزة ؟ لا .. لم أعد أثق بأحد هناك ..

واقشعررت للفكرة الرهيبة .. لقد دخلت الشقة وبحثت فيها ، بينما ذلك الشىء قابع فى الظلام ينتظر !

ومن جديد فقدت الوعى (أم هو نوم مرهق ؟) .. وحين فتحت عينى من جديد كان ضوء الفجر يتسلل من الشارع على استحياء ..

وجدت سيارة أجرة بشكل ما وطلبت من السائق أن يوصلنى لدارى ..

لولا أن هناك سائقى سيارات أجرة يسهرون حتى الفجر ، وآخرين يصحون قبل الفجر ، لوجدت نفسى فى مشكلة حقيقية ..

أعود لدارى ؟ لم لا ؟ إن كل شىء يقول إن الخطر لا يبدأ إلا بعد منتصف الليل .. سيمنحنى هذا ساعات ثمينة من التفكير ..

* * *

أخذت مفتاح شقتى من البواب ، وكنت قد تركته عنده قبل رحيلى ..

وفتحت الشقة فشممت رائحة الهواء الحبيس ، وكل شىء كما تركته فى تلك الليلة .. لو لم أكن وحيدًا لصاح أكثر من واحد : حمدًا لله على سلامتك أيها الكهل ، لكن والأمر كذلك قلتها لنفسى ..

وبحثت عن آثار قطرات دماء على الأرض التى اكتست بغبار رقيق ، فلم أجد .. هذه الشقة ظلت (نظيفة) فى أثناء غيابى ..

فتحت الشرفة وأنا أدندن لحن (دعوا الشمس تدخل) من مسرحية (شعر) التى كانت تهز العالم وقتها ، وأعددت لنفسى بعض الشاى وشطيرة ..

سيكون علىّ بعد أن أستريح أن أذهب إلى المستشفى لأفسر سرّ هروبى ، وأسترد بذلتى الكحلية التى تجعلنى فاتنًا ..

أما الآن فلنصغ إلى الشريطين ..

* * *

من البداية استبعدت الشريط الثانى ، فهو فارغ كله تقريبًا ما عدا عبارات من نوع (انصرفى بإذن الله) واستيقظ يا (حمزة) ..

فمن الواضح أنه يؤدى دور شريك الجلسة ..

الشريط الأول كان مزدحمًا بحق ..

صوت غريب مُرهق يتكلم بانجليزية لم أسمع مثلها قط ، وكلها تعبيرات عجيبة كأنها مأخوذة من الألمانية أو الدانماركية ..

إنه ينذر .. ينذر بلعنة صارت قريبة جدًا .. المهم هنا أنه يقول بالحرف :

« يجب أن تدمروا منبع الكلمات السبع .. يجب أن يبتلع قائلها لسانه » ثم :

« إن من بدأ اللعنة يقدر على إنهائها .. ومن فتح بوابة الشيطان يقدر على غلقها ، ومن لفظ الكلمات بصوت عال هو أقدر على منع شرها .. »

بعد هذا حدث ما توقعته .. توقف الصوت فجأة ، مع ضربة مكتومة .. إنه لم يجد الوقت حتى ليصرخ .. على الأقل كان موتًا غير أليم ..

ظللت أصغى إلى الشريط عشر دقائق متوقعًا أن

أسمع القاتل يقول شيئًا مفيدًا على غرار : هاها ! ماذا لو عرف الحمقى أننى أموت عن طريق كذا .. كذا .. وأن الخلاص من اللعنة هو كيت .. وكيت ؟

بالطبع لم يحدث .. كان هذا أملاً أجمل من أن يكون حقيقيًا ..

وأغلقت جهاز التسجيل ، ورحت أتأمل الضوء البهيج الذى يفترش سجادة الصالة الغبراء ..

إن الحياة جميلة ، ومازال من المؤسف فقدها ..

* * *

أحضرت مفكرتى وبدأت أرتب أفكارى على الورق كعادتى :

١ - توجد لعنة سلتية قديمة قادرة على نشر وباء يشبه التيفوس .

٢ - يبدو أن الكلمات السبع هى التى تثير هذه اللعنة وتحييها .

٣ ـ بعد لفظ الكلمات السبع يظهر زائر غامض لحوح ، ليس اللطف من صفاته ، وهو يجيد تغيير شكله ، ويدفع ثمن زياراته ذهبًا ، ويصرّ على قضاء ليلة فى دارك .

٤ ـ النظرية تبدو متكاملة لكن بها ثغرات .

٥ ـ لو كان ناطق الكلمات أول من يصاب بالوباء ، فما جدوى هذه التعويذة البلهاء ؟ الجواب المنطقى هو أن الكلمات السبع فى طريق الخصوم كى يقرءوها غافلين ، جاهلين خطرها .

٦ ـ لو كان هذا صحيحًا ؛ فأنا واثق من أن الكلمات السبع قد قرئت بصوت عال فى اسكتلندا فى أسطورة رعب المستنقعات .. لماذا لم يعمّ الوباء البلاد وقتها ؟

٧ ـ ما معنى أن (يبتلع قائلها لسانه) ؟ هل من المفترض أن أقطع لسان (عزت) بسكين وأضعه بين قطعتى خبز مع بعض المقبلات ؟ سيكون عسيرًا بعض الشىء أن أقنع (عزت) بهذا ..

٨ ـ من هو الرجل اللحوح ؟ ما دوره فى القصة ؟ ولماذا قتل (حمزة) وحاول قتلى ؟

٩ ـ ما هو دور الكلمات السبع بالضبط ؟ لقد افترض (أندرو) أنها تقوم باستدعاء (إكليبوس) كى يلتهم القرابين ، وافترض آخرون أنها تستدعى الموتى من المستنقعات ، وها هو ذا الأب (جستنيان) يقول إنها تسبب الوباء .. ما هى الحقيقة ؟ أم الحقيقة هى هذا كله ؟

١٠ ـ حسب ما قال (جستنيان) : إن (عزت) هو الوحيد القادر على إيقاف اللعنة ، أم هو أنا ؟ لكن كيف ؟ وأين هو (عزت) الآن ؟

لقد نصحته بأن يتوارى حيث لا يجده النمل الأخضر ؛ فكيف أجده أنا ؟!

* * *

وبحثت عن المفكرة القديمة التى أرسلتها لى الأخت الفاضلة (س . ب) .. ها هى ذى أسّ الكوابيس كلها ..

رحت أبحر بين الصفحات المتسخة الملأى بالبقع ..

المرة الأولى التى لفظت فيها الكلمات السبع بصوت عال ، هى فى احتفال (الكريسماس) الذى ضمّ الزوجين (أندرو) و(هيلين) .. والزوجين (سارة) و (جون) .. وقد فعلها الزوج (أندرو) بطريقة توحى بالمزاح ..

كل تعاويذ استدعاء الأرواح الشريرة هذه تقال كدعابة ، أو على سبيل التجريب ..

لماذا لم يصبهم الوباء ؟ هل لأنهم هلكوا جميعًا قبل قدوم الزائر الغامض ؟ أم أن (أندرو) هذا كان يعرف ما يفعله حقًا ؟

* * *

ألغاز .. ألغاز ..

لقد صار على عاتقى واجب واحد هو أن أجد (عزت) ..

(عزت) هو الذى وجدنى .. دق جرس الهاتف فرفعت السماعة لأجد من تقول لى إنها (سحر) ..

ـ « هذا جميل .. ولكن ما دخلى أنا بهذا ؟ »

ـ « أنا (سحر) .. (سحر الهمشرى) .. قال لى (عزت) إنك ستتذكر الاسم حالاً .. »

آه ! فهمت .. ولكن هل أنت (سحر) حقًا ؟ كان علىّ أن أصدقها لأننى لا أملك مزية الشك ، ولأن الوقت نهار على كل حال ..

ـ « هل هو بخير ؟ »

ـ « إنه عندى فى دارى .. وهو محموم .. لا أدرى سبب الحمى فهو دومًا مريض .. لكنه يطلب أن يراك ، وهو من أعطانى رقم هاتف المستشفى والبيت .. »

ـ « فهمت .. وكيف عرف عنوانك ؟ »

ـ « كان يعرف مقرّ عمل شقيقتى .. لقد جاءها ملهوفًا وتحدث عن .. »

قاطعتها فى ملل :

ـ « عن احتضارك بسبب السرطان .. مفهوم .. مفهوم .. وماهو عنوانك ؟ »

ذكرت لى عنوانًا فى حدائق الزيتون ، فدونته علـى ورقة ، ثم ارتديت ثيابى ، وهرعت إلى سيارتى العزيزة التى لم أدرك نفعها إلا ليلة أمس ..

فى الطريق عرجت على صيدلية ، فابتعت بعض (التتراسيكلين) .. فمن يدرى ؟ إن التيفوس الوبائى مرض شنيع لكن من الممكن القضاء عليه بجرعة واحدة من (التتراسيكلين) ..

* * *

كانت (سحر) بدينة كأفراس النهر ، وعجبت لأن هذا ذوق (عزت) ، لكنى أدركت أن كل هذه السنين تحدث تغيرات مهمة .. إنها تعيش وحدها عازفة عن الزواج ثانية ، ولا بد لمن تمارس هذه الحياة الملأى بالإحباطات العاطفية أن تربى القطط ، أو تلتهم الطعام كفرس النهر ، وأنا لم أر أية قطط فى شقتها بالمناسبة ..

قادتنى إلى أريكة يرقد (عزت) فوقها ، أحمر اللون كالطماطم ، يلهث من منخريه كالثيران ، وحرارته تجعله صالحًا لغلى الماء ..

قالت فى عصبية :

ـ « لو سمحت .. خذه وانصرف .. أنا لم تعد لى علاقة بهذا الشخص .. يقتحم شقتى هكذا وأنا أعيش وحدى ، ويرقد على أريكتى ليموت ! »

قلت وأنا أفحصه دون أن أنظر نحوها :

ـ « لقد جاء البائس حاسبًا أنك تموتين .. لم يأت ليعيد المياه إلى مجاريها ، وعلى كل حال أعتقد أنك فى خطر داهم ! »

صاحت فى رعب :

ـ « أى خطر ؟ »

أخرجت علبة المضاد الحيوى من جيبى ، وقلت :

ـ « تناولى كبسولتين الآن ، أو كبسولة كل ساعتين ، أو ابتلعى العلبة كلها الآن .. لا فارق عندى .. فلندع الله أن يكون هذا المرض هو ما أتوقعه ، وإلا نحن جميعًا هالكون .. »

وقبل أن تتناول العلبة فتحتها وابتلعت كبسولتين

من دون ماء ، ثم طرحتها إليها .. إن فحص (عزت) لا يشير إلى شىء .. إنها البداية المعروفة لكل الحميات .. لكن هذا مقلق فى حد ذاته .. فلو وجدت التهابًا فى اللوزتين لاطمأن قلبى أكثر ..

علامة أخرى تثير الذعر ، هى الحيرة والذهول المخيمان على وعيه .. إنه ضائع مشتت عاجز عن ترتيب أفكاره .. هذه من علامات التيفوس القوية ..

يقولون إن رائحة معينة كرائحة الفئران تفوح حول المريض ، لكن ليس لدىّ الأنف الحادّ الذى كان يملكه أطباء الماضى .. (أوسلر) كان يقف على باب العنبر ويشم الهواء .. رائحة القش تفوح من مرضى التيفود .. رائحة الفئران من مرضى التيفوس .. رائحة الجثة الطازجة من مرضى الفشل الكبدى .. إلخ .

أعطيت (عزت) ما يلزم ، وجلست جواره على الأرض أستجوبه :

ـ « أنت سمحت له بالمبيت معك أمس ؟ »

بشفتين جافتين ملتصقتين همس :

ـ « ما كان هو .. بل عمّى ! كنت أبيت فى شقته الخالية ! »

ـ « يا لك من أحمق ! وجاء هو بالصدفة ليبيت معك ؟! »

ـ « نـ .. نعم .. وأعطانى هدية من المرحوم أبى .. »

ومدّ يده المرتجفة إلى جيبه ..

وحين أخرجها لمحت قطعة مستديرة من معدن أصفر برّاق ..

* * *



ومدّ يده المرتجفة إلى جيبه .. وحين أخرجها لمحت قطعة مستديرة من معدن أصفر برّاق ..

١٠ - فكرة جنونية ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرّد كلمات ، لكن لا كأية كلمات ترقبوا المسافر الوحيد يأتى بأى وجه كان .. يغترف من بئر الأكاذيب ، ويرسم من خلفه خيطًا من دم .. إنه فى النهاية يرتحل ..

* * *

انتهى الأمر ..

لقد قضى المسافر الوحيد ليلته تحت سقف (عزت) ، ودفع الثمن ذهبًا (لأنه يصلح لكل مكان وزمان) ..

جلست جوار (عزت) مقاومًا رغبة عارمة فى خنقه ..

- « يا لك من أحمق ! قلت لك ألا تسمح لكائن حىّ بالمبيت معك .. نسيت كل ما قلته لك عن (كامل إرادتك الحرّة) .. »

سعل مرتين ، ثم قال :

ـ « كان هذا أقوى منى يا (رفعت) .. كان .. مقتنعـا .. بحق .. »

ـ « بالتـأكيد كـان كذلك ، ومـاذا فعـل فى هـذه الأمسية ؟ »

ـ « لم يفعـل شـيئًا .. قـال إنـه سينام ، وأخلد إلى الفراش .. بعد منتصف الليل بساعتين .. »

ـ « وبعدها ؟ »

ـ « رأيت قطرات الدم على الأرض .. هنا فقط بـدأت أقلق .. تسللت إلى غرفـة .. النـوم .. وكشفت الغطاء عن ..... وجهه .. »

ـ « وماذا رأيت ؟ »

بـدا عليـه الذهـول واتسـعت عينـاه الحمـراوان المحتقنتان ، وراح يرتجف ..

هذه هى مشكلة الحمقى .. كلمـا وصلنا إلى الجزء المهم من القصـة ، أصـابهم البلـه التـام .. جميعهـم يتصرف بالأسلوب ذاته ..

هززته فى غير رفق ، وصحت :

ـ « أقول .. ماذا رأيت ؟ »

همس بصوت كالفحيح :

ـ « هذا الغريب لا ينقل الوباء أو يسمح بقدومه .. إنه .. »

ودار رأسه ليواجه الجدار ، وهو يهمس آخر كلمة :

ـ « أنه هو الوباء ذاته ! »

* * *

بعد ما فرغت من إجراءات عزل (عزت) ، نصحت المحيطين بأن يتعاملوا معه كأنما هو الطاعون ذاتـه .. نحن لسنا واثقيـن أن هذا هو التيفوس .. لا يوجد لـدى (عزت) قمل على ما أظـن .. نحـن لا نعيش فـى تلك البيئات الخانقـة القـذرة التـى سـاعدت علـى انتشـار التيفوس فى القرون الوسطى ، وفى الحروب ..

ما زلت بصحة جيدة ـ من ناحية الحمى على الأقل ـ لكننى لست واثقًا من أننى لن أصاب بها هذه الليلة ..

إن حضانة التيفوس طويلة نسبيًا ، ولو أصيب به (عزت) ، فقد حدث هذا قبل بداية هذه القصة .. أى منذ أسبوع إلى أسبوعين ..

* * *

« يجب أن تدمروا منبع الكلمات السبع .. »

* * *

أشعلت الموقد ، ثم أحضرت تلك المفكرة الأسكتلندية التى لم أجن من ورائها إلا المتاعب ، فدعوت قليلاً على من أرسلها لى ، ثم تهيأت لحرقها باعتبارها منبع الكلمات السبع ..

فى اللحظة الأخيرة أحجمت ، وخطرت لى فكرة جنونية ..

* * *

إن من بدأ اللعبة يقدر على إنهائها ..

* * *

إن البداية والنهاية توجد عند معالج مصرى يدعى (إسماعيل) ..

* * *

عندما دنا المساء ، جلست أتأمل تفاصيل القصة كلها ..

إنه الوباء شخصيًا جاء من بعيد ، ناثرًا الدم والخراب من خلفه ، وقد أيقظته سبع كلمات من سبات طويل ..

جاء عبر السهول الثلجية ، والبحار ، والمحيطات ، يبحث عن سيده الذى ناداه ، والذى سيمنحه المبيت ليلة ..

هذه هى التقاليد ..

التعويذة التى اصطكها (السلت) من عشرة قرون ، ما زالت حيّة تؤدى عملها ، و (أندرو) الذى وجد هذه التعويذة لم يفهم قط فائدتها .. حسبها مخصصة لاستدعاء (إكليبوس) رعب المستنقعات ، وتلاها بصوت عال ..

لكن المجموعـة كلهـا هلكت قبل أن يقرع المسافر الغريب بابهم ليلاً ، وإلا لأدرك (أندرو) خطأه ، وهو ينزف آخر قطرات دمه بفعل التيفوس ..

لكن (أندرو) لـم يتجاوز الحقيقة ، حين فهم أن لهذه الكلمات مفعولاً كابوسيًا يفوق أقوى التعـاويذ وأشرّها ..

* * *

إنه الوباء بنفسه ..

فكيف يتجسد الوباء ؟

إنها فكرة شعرية جديرة بـ (إدجار آلان بو) فى إحدى قصصه الكابوسية ، وإلى حدّ ما لها مـذاق (قناع المـوت الأحمر) .. لكنها لا تصمد كثيرًا فى عصر الفيروسات والجراثيم والمجهر الإلكترونى ..

هنا من جديد يوجد من (رفعت) اثنان .. واحد يقبل وجود أشياء لا ترى ولا تسمع ولا تشم ولا تعقل ، وواحد لا يقبل ..

لكن الحقيقة هنا ـ برغم كل شىء ـ هى أن الزائر موجود .. يقرع الأبواب بعد منتصف الليل ، وزيارته تترك الدماء فى كل صوب ..

يوجد شىء ما لا أدرى كنهه ، لكنه موجود ، وعلىّ أن أتأهب له ..

* * *

وفتحت النافذة لأرى القمر الحزين الشتوى يطلّ على المدينة ..

الهواء البارد البليل يتسلل إلى رئتى ..

أمسك المفكرة ، وبصوت عال ثابت أصرخ :

ـ « أرتميس ـ كاسيس ـ هرملاكايوس ..

بيركادوس ـ بيركادوس ـ بيركادوس ـ بيركادوس ..

أشيوست ديمترا ـ إرسادوك .. »

والتقطت آخر أنفـاس فـى صدرى المتحشرج ، وصحت :

ـ « إينياس ! »

ومن الطابق الذى يقع تحتى دوّى صوت الأستاذ (زكريا) :

ـ « كفَّ عن الصخب يا أحمق ! إن لدىّ طالبة فى الثانوية العامة ! »

أغلقت النافذة ، وقلت فى سرى :

ـ « لن تفيدها الشهادة كثيرًا حين يعمّ الوباء البلاد ! »

لا ألوم من يحسبنى مجنونًا .. هأنذا قد تجاوزت مرحلة استضافة كهنة التبت فى شقتى ، لأدخل مرحلة ترديد التعاويذ السلتية فى النافذة ..

وبسرعة ، فرغت من جمع حاجياتى ، وتأكدت من إغلاق كل شىء ، ثم غادرت الشقة مسرعًا ..

* * *

إن من بدأ اللعنة هو الوحيد القادر على إيقافها ..

* * *

إن (عزت) ليس فى حال تسمح بالمواجهة القادمة ..

لكننى أستطيع ..

أعتقد أننى أستطيع .....

* * *

١١ ـ أمسية بهيجة ..

اسمعوا الكلمات السبع ، حين ينطقها لسان أسقمته السنون ، ووجه جمدته الأهوال .. إنها مجرّد كلمات ، لكن لا كأية كلمات .. ترقبوا المسافر الوحيد يأتى بأى وجه كان .. يغترف من بئر الأكاذيب ، ويرسم من خلفه خيطًا من دماء .. إنه فى النهاية يرتحل ، لكن ليس من دون ثمن ..

* * *

سألنى وهو يجفف العرق من على جبينه :

ـ « هل أنت واثق من هذا ؟ »

ـ « كل الثقة .. »

قلتها وأنا ألهث حاملاً البطانية الثقيلة فوق كتفىّ ، وأنا ألحق به عبر الممرات خافتة الإضاءة ..

كان د . (سليمان) بدينًا متلاحق الأنفاس بدوره ،

لكن ما زاد حالته النفسية سوءًا هو شكه فى قواى العقلية .. إن عصبيتى فى الأيام الأخيرة ـ برغم ما أتعاطاه من أقراص (بنزوديازبين) ـ جعلت الكل يخشانى ، لكنها فى الوقت ذاته جعلتنى قاطعًا كاسحًا أنال ما أريد ..

إن هذا درس لى فى المستقبل ـ لو كان هناك مستقبل ـ هو أن الصراخ يجدى غالبًا ، والصوت العالى ينجح دائمًا ..

كان العاملان النوبتجيان يلحقان بنا ، وقد حمل كل منهما كشافين من الكشافات التى قمت بجمعها .. بينما كانت الزجاجة معى ..

وفتح لى (سليمان) باب الغرفة الرهيبة ، ودعانى للدخول ..

* * *

رحت أجرى توصيلات الكهرباء بحيث أتأكد من أن الكشافات الأربعة ستضاء كلها بمجرّد أن أدس طرفى سلك عارٍ فى القابس .

نهضت لأجد (سليمان) والعاملين ينظران لى فى شك ، ومن جديد قال فى كياسة :

- « (رفعت) .. ما زلت أرى أنك لو طلبت رأى طبيب نفسى فربما ..... »

قلت بلهجة قاطعة :

- « فات أوان ذلك .. والآن وداعًا .. ولا تنس أن تغلق الأنوار كلها فى أثناء انصرافك .. »

تبادل النظر مع العاملين ، ثم أمر أولهما - وهو عملاق يلف رأسه بمنديل كبير كمن أصيب بصداع - بأن يظلّ دانيًا إن أردت شيئًا ، وبالطبع يترك الباب مفتوحًا ..

قلت له قبل أن ينصرف ، وقد بدأت أسنانى تصطك :

- « أريد شايًا ساخنًا قبل أن تنصرفوا .. »

نظر إلى العامل الثانى :

- « ليكن .. فلتر ما يريد د . (رفعت) وتنفذه يا (بيومى) .. »

وألقى نظرة على المكان قبل أن يخرج ..

* * *

واربت الباب بحيث يمكن فتحه من الخارج ، ولا يسمح للبرودة بالخروج ، وعلى الأرض جلست ألهث .. إن البرد لن يرحل بسهولة برغم أنهم خفضوا درجة التبريد إلى الحد الأقصى لها ..

كان هذا المكان الذى اخترته لقضاء الأمسية - كما لا يغيب عن ذكائكم - هو المشرحة .. ثلاجة المشرحة لو أردنا الدقة ..

الإضاءة خافتة مرهقة للعينين ، لكنها ليست الظلام الدامس ، وفى هذه الإضاءة أستطيع أن أرى صفوف الجثث المعلقة التى يتصاعد منها البخار الثلجى ، والرفوف الجانبية الشبيهة بأدراج المكتب .

هنا يحفظون الموتى ناقصى الأهلية ، إلى أن يجدوا من يسأل عنهم ، أو يبدءوا عملية حفظهم باستعمال (الفورمالين) وأوكسيد الرصاص الأحمر يُحقن فى العروق ، تمهيدًا لاستخدامهم فى دروس التشريح ..

لماذا اخترت هذا المكان الرهيب ؟ هل أنا سوداوى النزعة إلى هذا الحد ؟

بالطبع لا .. لكنى كنت بحاجة إلى البرد .. الثلج .. حيث لن يقاوم المسافر الوحيد أن يجىء إلىّ ، وحيث الموت يرسم لوحاته الشنيعة فوق كل جدار ومع كل شهيق وزفير ..

سيأتى .. أنا أعرف أنه سيأتى ..

إن الإغراء أقوى منه ..

إن البرودة ستجعله أضعف .. إنه ـ ككل جرثومة ـ يفقد قواه فى البرد ، وربما لهذا السبب كان يطلب المبيت ليلة فى كل مرة يظهر فيها .. كان بحاجة إلى الدفء ..

* * *

بدأ النعاس يغالبنى برغم أن هذا ليس موعد نومى ..

وبدأت أفهم .. إننى أتسرب شيئًا فشيئًا إلى غيبوبة البرد .. وعيى يتجمّد تدريجيًا كما يحدث للبؤساء

الذين يضلّون طريقهم فى عاصفة ثلجية .. إنهم يموتون حينما يغريهم الصقيع بالجلوس والنوم ، وفي الغالب لا يصحون أبدًا .. أو يصحون وقد فقدوا ساقًا أو ساقين ..

يا لى من عجوز مجنون !

فى النهاية ـ وقد فشلت فى إبقاء جفونى مفتوحة ـ نهضت ، وواربت باب الثلاجة المعدني الثقيل ، وخرجت لأقف فى الممر الخارجى الدافئ قليلاً ..

هكذا ! إن الجليد ينصهر من فوق أعصابى وثنايا مخى ، وقد عاد الدم يتدفق من جديد .. لحظات ثم أعود للداخل ..

ومن نهاية الممر رأيت خيال العامل قادمًا ..

كان قادمًا ليرى ما إذا كنت أريد شيئًا .. لا .. ليس هو ..

هذا الخيال أطول قامة ، ويبدو مسربلاً بثياب فضفاضة كمسوح الرهبان ، والأدهى أنه يحمل شيئًا كالمنجل فى يده ..

* * *

عدت إلى داخل الثلاجة ، ورحت ألهث .. واربت الباب ، ثم عدت لأجلس القرفصاء جوار الجدار المتجمد ..

وسمعت الباب ينفتح ببطء ..

رفعت عينى فرأيته للمرة الأولى ..

* * *

كما قال (عزت) ؛ لم يكن من السهل أبدًا أن ترى وجهه .. دائمًا هو فى الظل .. ودائمًا يجىء مصدر الضوء من أعلى فيظلم وجهه كله .. إن من شاهدوا فيلم (الأب الروحى) فى أول أجزائه يمكنهم بسهولة فهم ما أعنيه خاصة المشاهد التى يظهر فيها (دون كورليونى) ..

كنت جالسًا على الأرض أرمقه فى رهبة .. هذه المرة جاء من دون رتوش ولا إضافات .. جاء بحقيقته كما هو ، وهكذا كان يقرع أبواب الحطابين فى ممر (سبتال أوجلينشى) يسألهم قضاء ليلة .. يا له من مشهد رهيب ..

* * *

قلت له فى تهذيب :

- « مرحبًا بك .. أعرف أنك قطعت مسافة طويلة ، فلابد أنك مرهق .. مرحبًا بك فى دارى .. »

أشرت إلى الجثث المعلقة هنا وهناك ..

للمرة الأولى تكلّم بصوت عميق رخيم :

- « قد دعيت مرتين .. »

لففت البطانية بإحكام أكثر حول نفسى ، وقلت مرتجفًا :

- « انس كل شىء عن الدعوة الأولى .. أنا المسئول عنها .. الآن أريد منك أن تجلس هنا معى ، وتحكى لى كل شىء عن رحلتك .. »

استدار ، وجذب مقبض الباب .. و ...

كراتك !

انغلق الباب بضربة معدنية قوية ، وهكذا صرت وحدى مع هذا الشىء فى ثلاجة واحدة ..

* * *

قلت لنفسي : لا بأس .. هناك من يعرفون أننى هنا ، وهناك عامل ينتظر بالخارج ، ولسوف يندهش لكون الباب مغلقًا ..

هنا رفع المسافر الوحيد منجله ببطء ، وفى الضوء الخافت أدركت أن نصله ملوث بالدماء !

دماء من ؟

لقد انتهى أمرى ، حتى لو انتصرت عليه ، فلن أخرج من هنا .. هذا المجنون أوصد بابًا لا ينفتح من الداخل ..

قال لى وهو يتقدم نحوى ببطء :

ـ « سأبيت عندك الليلة إن أذنت لى .. »

كأنما الاختيار بيدى ، فهززت رأسى فى مرح :

ـ « بكل سرور .. »

وببطء رأيت يده تمتد لى .. فتحت كفى وأنا أعرف ما سأجده .. قطعة المعدن الصفراء البراقة إياها ..

ـ « ذهب .. أنا دومًا أدفع بالذهب .. »



هنا رفع المسافر الوحيد منجله ببطء ، وفى الضوء الخافت أدركت أن نصله ملوث بالدماء !

وضعت القطعة الرهيبة فى جيبى ، وأشرت له إلى جوار الجدار كى يجلس .. يجلس بين الأقدام المتدلية المتجمدة فوق رأسه ..

قال وهو يفترش الأرض الثلجية :

ـ « هذا موضع له سمت الموت ورائحته .. »

ـ « بل هو الموت ذاته .. أردت أن تستمتع بليلتك .. »

كيف أفلت من هذا الموقف ، وكيف أخرج من هذه الورطة ؟

سألته محاولاً أن أتناسى الصقيع الزاحف على أطرافى :

ـ « كيف كان الحطابون الجهلة يقرءون الكلمات السبع ؟ »

ـ « كان هناك من يلقنها لهم تلقينًا .. إن قليلين يعرفون جدوى تلكم الكلمات .. قالوا تخرصًا إنها تهب الخلود ، وقالوا إنها تحيى سيد المستنقعات ، وقالوا إنها تهب الثراء .. لهذا رددها كثيرون ، ولسوف يرددها كثيرون .. »

وأردف فى لهجة ذات معنى :

ـ « لست أنت آخرهم .. »

ودون كلمة أخرى انثنى كالورقة على نفسه ، وغرق فى سبات عميق ، سبات لن يصحو منه إلا وأنا مريض ، وتبدأ شرارة الوباء فى هشيم البشر ..

مددت يدًا مرتجفة ، ودسست السلك فى القابس الوحيد الموجود داخل الثلاجة ، وسرعان ما توهجت المصابيح الأربعة ..

الأشعة فوق البنفسجية تغمر الجسد النائم ..

مددت يدًا مرتجفة للمرة الثانية ، وفتحت زجاجة (الفورمالدهايد) التى دسستها فى البطانية ، ودون كلمة أخرى قذفتها فوق ثياب المسافر .. رائحة السائل الكريهة تحرق عينىّ ، وتهيج أنفى ..

* * *

كنت قد قررت أن أتخلص منه كما يتخلصون من الأوبئة كلها .. المطهرات والأشعة فوق البنفسجية وصقيع الثلاجة ..

إنه وباء يمشى على قدمين ، ولسوف يقتله ما يقتل أى وباء ..

تمنيت هذا واشتهيته ..

وكانت خطتى أن أفعل هذا ، ثم أفر من الثلاجة وأحكم غلقها خلفى .. وبعد ساعات قد يبدو الموقف مختلفًا ..

لكنى الآن سجين معه .. سجين يوشك على التجمّد ..

هو ذا راقد حيث هو دون حراك .. فلا أعرف إن كانت خطتى قد أصابت أم فشلت ..

لكنى أنهض إلى الباب وأقرعه مرارًا صارخًا :

ـ « اسمعونى أيها الحمقى ! أنا هنا ! افتحوا لى ! »

إننى حبيس هنا .. أمضى ليلة مع الوباء ذاته ـ ويا له من شرف ـ مقابل جنيه من ذهب ..

جنيه من ذهب ..

جنيه من ..

جنيه ..

جـ .....

* * *

خاتمة

كلا .. لم أمت ..

أراهن على أن بعضكم خمّن ذلك !

إنها طريقة (جريفيث) فى الإنقاذ على آخر لحظة ، كما يسميها السينمائيون .. لكن كان هذا متوقعًا على كل حال ..

لقد عاد د. (سليمان) بعد ساعة ليطمئن علىّ ، وليعرف الحقيقة وراء رغبتى العارمة فى المبيت فى ثلاجة المشرحة ..

وجد العامل الذى تركه فى حالة .. إحم .. حالة تشبه حالة د. (حمزة) حين وجدته فى شقته ..

هرع إلى الثلاجة فوجدها موصدة الباب .. فتحها ليجدنى وراء الباب .. أزرق اللون ، مغر بالالتهام كدجاجة خرجت من (فريزر) ثلاجتك ..

جرّنى إلى الخارج ، وطلب النجدة ..

وهأنذا حىّ أرزق .. صحيح أننى فقدت إصبعين من قدمى بفعل (قضمة الصقيع) لكن هذه الأشياء يمكن مداراتها بجورب محشو بالقطن .. أنتم لم تلاحظوا هذا طيلة جلوسى معكم .. أليس كذلك ؟

كان أول سؤال سألته وأنا فى الفراش :

ـ « الـ .. المسافر .. أين هو ؟ »

قال (سليمان) وهو يهدئ من روعى :

ـ « أى مسافر ؟ توجد بالثلاجة عباءة هائلة الحجم .. ويبدو أنها تلتف حول بقعة كبيرة من دماء متجمدة .. لا شىء يثير الذعر هنا .. صدقنى ! »

* * *

لقد هلك المسافر الوحيد ، أو هذا ما أرجوه ..

لم يتحمل كل ظروف التعقيم التى وضعته فيها ..

وقد كانت خطتى الأولى هى أن تتم المواجهة بيننا فى مصنع للمحاقن الطبية ، حيث أجد ما أتمناه من النتروجين السائل والأوزون وكل ما يخطر وما لا يخطر ببالى من

وسائل .. لكن ما باليد حيلة .. كان عسيرًا أن أرتب الأمر مع مصنع كهذا ، على حين كان د . (سليمان) رجلى بشكل أو بآخر ..

أعتقد أن الوباء قد هلك ..

أعتقد أن اللعنة السلتية قد انتهت ..

أعتقد أن (عزت) سيسترجع قواه ، ولن ينقل المرض لآخرين ..

* * *

ثمة ثغرة واحدة هنا ، هى أن كثيرين منكم صاروا يعرفون الكلمات السبع .. أتوسل إليكم أن تنسوها .. لا ترددوها أبدًا بصوت يعلو على صوت وجدانكم ، وإن فعلتم فلا تثقوا بالأشخاص الذين يطلبون المبيت ليلاً .. الذين لا يمكن رؤية وجوههم .. وبالأخص الذين لا يدفعون إلا الذهب ..

اتفقنا ؟

* * *

الأسطورة القادمة أسطورة فريدة من نوعها ..

أسطورة تختلف ..

ولكن هذه قصة أخرى .

* * *

د . رفعت إسماعيل

القاهرة